الحمامة

الحمامة

تأليف

باتريك زوسكيند

ترجمة

مصطفى علي

الحمامة

تأليف: باتريك زوسكيند

ترجمة: مصطفى علي

سنة الطباعة: ٢٠٠٩.

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة.

جميع العمليات الفنية والطباعية تمت في:

دار مؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار مؤسسة رسلان

للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا - دمشق - جرمانا

هاتف: ٥٦٢٧٠٦٠ ١١ ٠٩٦٣

تلفاكس: ٥٦٣٢٨٦٠ ١١ ٠٩٦٣

ص. ب: ٢٥٩ جرمانا

تقديم

باتريك زوسكيند PATRICK SUSKIND، صاحب هذه الرواية، ألماني الأصل، ولد سنة ١٩٤٩ في بلدة إمباخ على بحيرة شتارنبرج الواقعة على سفوح جبال الألب.

كان والده صحفياً وكاتباً..

بعد حصوله على الثانوية العامة، درس التاريخ في جامعة ميونيخ، وبعد أن أنهى دراسته عمل في أعمال وأماكن مختلفة، ومارس الكتابة، فكتب عدة قصص قصيرة. ولم يشتهر ككاتب إلا عام ١٩٨١، عندما ظهرت إلى الوجود مسرحيته، عازف الكونترباس، وهي مسرحية من فصل واحد، قدمتها معظم المسارح الألمانية، وكثير من مسارح أوربا في الثمانينات.

ثم ظهرت روايته الأولى: "العطر" سنة ١٩٨٥، ولاقت رواجاً كبيراً ونالت شهرة واسعة، خصوصاً بعدما ترجمت إلى أكثر من عشرين لغة من لغات العالم.

وفي عام ١٩٨٧، حصل زوسكيند على جائزة جونتنبرج لصالون الكتاب الفرانكفوني السابع في باريس.

وبعد روايته الشهيرة "العطر" ظهرت روايته "الحمامة" التي نقدم لك - عزيزي القارئ - ترجمتها في هذا الكتاب.

هذا ويعيش زوسكيند حالياً بين ميونيخ وباريس متفرغاً للكتابة.

الحمامة

كان جوناثان نويل قد تجاوز خمسين سنة من عمره، منها عشرون سنة عاشها في أمان واطمئنان كاملين، حيث خلت من أية أحداث أومشاكل، إلى أن طرأت على حياته مشكلة الحمامة، التي عصفت بين ليلة وضحاها بذلك الأمان والاطمئنان الذي كان يتمتع به.

لم يكن يتخيل أن يحدث له في حياته شيء له أهمية، أو يمكن اعتباره حدثاً، باستثناء موته بالطبع. وهذا ما كان يراه مناسباً تماماً لمثله. إذ كان لا يحب الأحداث ويكره بشكل خاص تلك التي تجعل توازنه النفسي يختل، أو تتسبب في إحداث فوضى في حياته اليومية التي كانت منتظمة الإيقاع إلى حد الرتابة.

مثل هذه الأحداث، أو أكثرها، وقع في الفترة الكئيبة الممتدة ما بين طفولته وصباه. وكان لا يحاول أبداً استرجاعها في ذاكرته، إذ لو حاول ذات مرة، فإن

ذلك كان يسبب له ضيقاً وضجراً عظيماً: من ذلك ما حدث له في عصر يوم صيفي من شهر يوليه سنة ١٩٤٢ في (شارنثون)، عندما كان عائداً إلى البيت من رحلة صيد سمك قام بها.

في ذلك اليوم، كانت قد هبّت عاصفة رعدية، أعقبها مطر، بعد فترة جفاف طويلة.

خلع حذاءه ومشى حافياً على الإسفلت الدافئ، وراح يستمتع بالقفز في برك المياه الضحلة التي صنعها المطر على الإسفلت. وبعد وصوله إلى البيت، أسرع إلى المطبخ، أملاً في أن يجد أمه في انتظاره، وقد جهّزت له طعام الغداء. إلا أنه فوجئ بعدم وجودها، وكل ما وجده مريلتها معلقة على مسند الكرسي.

ـ أمك ليست هنا.. لقد اضطرت للسفر، وستبقى بعيداً لفترة طويلة.

هذا ما قاله أبوه.. أما الجيران، فقد قالوا له:

- لقد تم ترحيلها!... وضعوها أولاً في الصالة الرياضية المغطاة، ثم نقلوها إلى معسكر (درانسي).. ومن هناك إلى الشرق، حيث لا أحد يعود!

يومها لم يفهم جوناثان ما حدث، وكان مشوشاً تماماً، وبعد أيام قليلة اختفى أبوه أيضاً. ثم وجد نفسه ومعه أخته الصغيرة، يحشران فجأة في قطار يتجه نحو الجنوب، يرافقهم فيه أناس أغراب. ثم قادوهما بعد مغادرة ذلك القطار، عبر أرض زراعية، ثم عبر غابة صغيرة، ليركبا قطاراً آخر، يتجه إلى الجنوب أيضاً.. وكانت رحلة طويلة، استقبلهما في نهايتها، في (كافايون) عمهما الذي لم يسبق أن رأياه من قبل. واصطحبهما إلى مزرعته القريبة من (بوجيه)، حيث خبأهما فيها إلى أن انتهت الحرب. ثم سمح لهما بعد ذلك بأن يعملا لديه في أرضه التي يزرعها بالخضر والفاكهة.

في أوائل الخمسينات، وبعدما استهوته الزراعة وحياة الفلاحين، اقترح عليه عمه أن يتطوع للخدمة

العسكرية، فاستجاب لاقتراحه، وتطوع لمدة ثلاث سنوات، قضى السنة الأولى منها في محاولة للتكيف مع حياة كريهة وقاسية وسط الجماعة في الثكنات العسكرية. وفي السنة الثانية تم شحنه بحراً إلى الهند الصينية، ليقاتل هناك. أما السنة الثالثة، فقد قضاها في مستشفيات الميدان العسكرية، بعدما أصيب مرة برصاصة في قدمه، ومرة أخرى في فخذه، ثم إصابته بالدوسنتاريا. وحين عاد إلى (بوجيه) في أوائل عام ١٩٥٤، كانت أخته هي الأخرى قد اختفت! وقيل له إنها ربما هاجرت إلى كندا.

ومرة أخرى اقترح عليه عمه أن يتزوج، وحدّد له فتاة تدعى "ماري بكوش" من بلدة (لورى) المجاورة لكي يتزوجها. وبطيبة خاطر، وبكل ترحاب، استجاب جوناثان لاقتراح عمه، رغم أنه لم يكن قد رأى تلك الفتاة من قبل، ولا كان لديه تصور واضح لما يمكن أن تكون عليه الحياة الزوجية بشكل عام. ربما كان دافعه إلى ذلك أنه كان يتطلع إلى أن يجد فيها أخيراً

أسمى ما ترنو إليه نفسه: حياة رتيبة هادئة.. لا يعكر صفوها أي حدث. إلا أنه وبعد مضي أقل من أربعة أشهر على زواجه أنجبت له ماري بكوش ولداً، وفي خريف العام نفسه تركته وهربت مع شاب تونسي كان يعمل بائعاً للخضروات في مرسيليا.

بعد تلك التجربة، توصل جوناثان إلى قناعة ذاتية، بأن الناس لا يمكن الوثوق بهم أو الاعتماد عليهم. وأن المرء لن يجد الطمأنينة والسلام في حياته إلا إذا انعزل عن الناس، ونجح في الابتعاد عنهم، وخصوصاً بعدما صار مثار سخريتهم وتهكمهم. وهذا بحد ذاته لم يزعجه قدر انزعاجه بأنه قد أصبح، وبسبب ما حدث، محط اهتمام الرأي العام. ولذلك أقدم ولأول مرة في حياته على اتخاذ قراره بنفسه، فتوجه إلى البنك الزراعي، واسترد كل مدخراته به، ثم حزم حقيبته وتوجه إلى باريس.

وفي باريس صادفه حظ كبير مرتين: مرة حين وُفِّق في العثور على وظيفة حارس، في بنك يقع بشارع

(دوسيفر)، والمرة الثانية حين وجد مأوى له في إحدى ما يسمى بغرف الخدم في الطابق السادس من بناية تقع بشارع (دولا بلانش) يتم الوصول إليها عن طريق درج الخدم الضيق الموجود بالواجهة الخلفية للبناية.

كانت الغرفة تقع في نهاية ممر ضيق، به نافذة صغيرة، تسمح بدخول قدر شحيح من ضوء النهار. وكانت تصطف على جانبي الممر دستتان من الغرف ذات أبواب مدهونة كلها باللون الرمادي، ومرقمة بالترتيب من رقم ١ إلى رقم ٢٤، حيث غرفة جوناثان، التي لا يتجاوز طولها الثلاثة أمتار والأربعين سنتيمتراً، وعرضها مترين ونصف، وتحتوي على سرير وطاولة وكرسي وعلاقة ملابس ومصباح كيروسين.. وفقط في الستينات زُوِّدت البناية بالكهرباء، فأصبح متاحاً لساكنيها أن يقتني كل منهم سخاناً كهربائياً يطبخ عليه وآخر للتدفئة. ثم وُصِّلت مواسير الماء إلى الغرف، فأمكن تركيب حوض للغسيل بها، بالإضافة إلى سخان للماء. قبلها كان ساكنو هذه الغرف، الذين لا

يملكون موقد كحول خاص بهم، ينامون في جو شديد البرودة، وكانوا يغسلون جواربهم وأوعية أكلهم القليلة، ويغتسلون، بالماء البارد في الحوض الوحيد الموجود بالممر بمحاذاة المرحاض المشترك.

كل هذا لم يكن يسبب لجوناثان أي ضيق أو ضجر.. فهو لا يبحث عن الرفاهية، بل عن مأوى مستقر، يكون له وحده، يحميه من المفاجآت والأحداث المزعجة في هذه الحياة.. مأوى لا يمكن لأي كان أن يطرده منه.

وهذا ما وفّرته له الغرفة رقم ٢٤ لأول مرة، ولذلك ما أن وضع قدمه في الغرفة لأول مرة حتى قال لنفسه: "هذه هي!.. في الواقع لقد كنت دائماً تبحث عنها .. وهنا سوف تبقى".

تماماً كما يحدث لبعض الرجال حينما يمرون بتجربة الحب لأول مرة، عندما يقع نظرهم على امرأة لم يسبق لهم رؤيتها في حياتهم، فيبدون كما لو أن مساً أصابهم، فتتملكهم حالة من القناعة والرضا بأن هذه المرأة هي منتهى أحلامهم، ويتمنون لو يبقوا معها حتى نهاية العمر!

كان جوناثان يغادر الغرفة التي استأجرها بمبلغ خمسة آلاف فرنك فرنسي قديم، إلى مقر عمله في

شارع (دوسيفر) القريب. ثم يعود إليها في المساء، ومعه خبز وسجق وجبن وتفاح.. يأكل وينام شاعراً بالرضى والسعادة.

وخلال أيام الآحاد، كان لا يغادر الغرفة، بل يمكث بها، شاغلاً نفسه بتنظيفها وترتيب محتوياتها.

هكذا عاش فيها بهدوء وأمان، عاماً بعد عام، وعقداً وراء عقد.

خلال هذه الفترة تغيرت بعض الأشياء والأمور، مثل قيمة الإيجار ونوعية المستأجرين.. فبينما كان أكثر مستأجري الغرف في الخمسينات هم الخدم والمتزوجون حديثاً وبعض المتقاعدين وأصحاب المعاشات؛ أصبح المرء يرى فيها أسبانيين وبرتغاليين وأفارقة شماليين.. يأتون ثم يرحلون.

وفي أواخر الستينات، كانت أكثرية هؤلاء المستأجرين من الطلبة. ثم أخيراً بدأت تلك الغرف تخلو من مستأجريها، وأصبح بعضها يستخدم من قبل مالكيها الذين يشغلون شققاً بالطوابق السفلية من

البناية؛ كمخازن للعفش القديم، أو كغرف لإقامة ضيوفهم الذين يزورونهم من حين لآخر.

أما غرفة جوناثان التي تحمل الرقم ٢٤، فقد تحولت إلى واحة صغيرة للراحة والاستجمام، بعدما اقتنى جوناثان سريراً جديداً ،ودولاباً للملابس، وبعدما كسا أرضها بالموكيت، وغطى حائط ركن الغسيل بورق ذي لون أحمر لمّاع. كما اقتنى راديو وتليفزيون ومكواة ملابس، ولم يعد يضع طعامه في أكياس بلاستيك يعلقها خارج النافذة في الهواء الطلق، بل أصبح يضعها في ثلاجة صغيرة تستقر أسفل حوض الغسيل، تحمي الزبدة من الذوبان، والسجق من الجفاف، حتى في أشد أيام الصيف حرارة.

فوق رأس السرير، قام جوناثان بتركيب رف خشبي صفّ عليه مالا يقل عن سبعة عشر كتاباً: موسوعة جيب طبية من ثلاثة أجزاء، وبعض الكتب المصورة عن إنسان الكرومانيون، وآخر عن تقنية صب وتشكيل البرونز في العصر البرونزي، وثالثاً عن مصر

القديمة، ورابعاً عن الكورسيكيين والثورة الفرنسية، وخامساً عن السفن الشراعية، وسادساً عن أعلام الدول، وسابعاً عن الحيوانات المدارية، وروايتين لالكسندر دوماس، ومذكرات سان سيمون، وكتاباً في الطهي والتدبير المنزلي، وقاموس لاروس الصغير، وأخيراً (الكتاب المقدس) ـ طبعة خاصة لرجال الشرطة مذيّلة بالحالات التي يُسمح فيها باستعمال السلاح.

وتحت السرير، كانت هناك دستة من زجاجات النبيذ الأحمر، من بينها زجاجة شاتو شوفال بلان جراند كرو كلاس Chateau Cheval Blanc Grand Cru Class، كان يحتفظ بها ليوم احتفاله بتقاعده سنة ١٩٨٨م.

أما نظام إضاءة الغرفة، فقد صممه جوناثان، بعد جهد مضنٍ ودراسة دقيقة، بحيث يتمكن من التحكم فيه من ثلاث نقاط: عند رأس السرير، وعند نهايته، وعند الطاولة الصغيرة التي اعتاد أن يجلس أمامها ويقرأ

الجريدة، وبحيث لا تؤذي عينيه شدة الضوء، أو يلقي ظلالاً على ما يقرأ.

بعد هذه الإضافات والتعديلات، كان لابد أن تبدو الغرفة أضيق من وضعها الأول، إلا أنها في الواقع بدت أكبر، كما تكبر الصدفة حين تنمو قشرتها، فأصبحت تشبه بتجهيزاتها الماهرة كابينة سفينة أو مقصورة نوم فاخرة في إحدى عربات قطار النوم. ولم يعد بينها وبين غرفة الخدم المتواضعة السابقة أي شبه.

مع كل هذه التغييرات، احتفظت غرفة جوناثان - حتى بعد مضي ثلاثين عاماً على إقامته بها، بخصائصها ومميزاتها، سواء بالوضع الذي كانت عليه، أو بوضعها في الوقت الحالي، وبقيت بمثابة جزيرته الآمنة في هذا العالم المضطرب، الشبيه ببحر مصطخب الأمواج، وحصنه المنيع الذي لا يجرؤ أحد على الاقتراب منه، وعشيقته .. نعم، عشيقته!.. فقد كانت تعانقه بحنان في كل مرة يعود إليها مُتعباً في

الليل.. تدفئه وتحميه وتغذي روحه وجسده.. كانت دائماً هناك حين يحتاجها، ولم تهجره أبداً!

لقد كانت الشيء الوحيد في حياته الذي أثبت أنه يمكن الوثوق به، لذا فإنه لم يفكر مطلقاً في أن يهجرها أو ينفصل عنها، على الرغم من بلوغه سن الخمسين، ومعاناته في بعض الأحيان وهو يصعد درجات السلم الكثيرة ذات الميل الرأسي المتعب. ورغم تحسن راتبه، مما يسمح له - إن أراد - أن يستأجر شقة حقيقية بها مطبخ وحمام ومرحاض مستقل، إلا أنه ظل مخلصاً لمعشوقته الصغيرة، بل إنه فكر وخطط للارتباط بها بأواصر أكثر عمقاً، بحيث لا يتمكن أحد أبداً من إنهاء ذلك الارتباط. فوقّع عقداً بهذا المعنى مع مالكتها: مدام لاسال، قيمته خمسة وخمسون ألف فرنك فرنسي جديد، دفع منها سبعة وأربعين ألفاً، وتبقى عليه ثمانية آلاف تستحق آخر العام.. بعد تسديدها تصبح الغرفة ملكاً مطلقاً له، لا يتمكن

أحد أو شيء في العالم أن يفرّق بينه وبينها، عدا الموت بالطبع.

هكذا راحت الأمور كلها تسير على ما يرام في حياة جوناثان، إلى أن كان يوم الجمعة من شهر أغسطس من العام ١٩٨٤، حين واجهته مشكلة الحمامة.

كان قد استيقظ مبكراً كعادته، وتأهب للذهاب إلى المرحاض المشترك الموجود بالممر خارج الغرفة، مثلما يفعل كل صباح. وكما تعوّد من قبل، لصق أذنه بالباب قبل أن يفتحه، وأرهف سمعه ليتحقق من خلو الممر من الناس، إذ كان لا يرتاح لمقابلة أحد من جيرانه في الممر، وخصوصاً في الصباح، حين يكون مرتدياً البيجاما وروب الحمام، وذاهباً إلى المرحاض.

وكان أكثر ما يسبب له إحراجاً، إنشغال المرحاض لحظة دخوله إليه. أما الأمر المرعب، فكان توقعه مقابلة أحد الجيران أمام باب المرحاض.. حدث له هذا مرة واحدة في صيف ١٩٥٩ - أي قبل خمسة

وعشرين عاماً. وحتى اليوم تسري القشعريرة في جسده عندما يتذكر التفاصيل: هذا الهلع المتبادل من نظرة الآخر.. وهذا الضياع المتبادل للخصوصية.. وهذا التقدم والتراجع المتبادل، مع كلمات: أرجوك تفضّل.. لا ، بعدك.. أوه، بعدك يا سيدي، فأنا لست مستعجلاً.. لا ، تفضل أنت أولاً ، وأنا بعدك، أنا مُصرّ، تفضل... وكل هذا الحديث بالبيجاما وروب الحمام!

لهذا فقد كان جوناثان حريصاً جداً على ألا يتعرض مطلقاً لمثل هذه المواقف.. وهو بالفعل لم يتعرض لمثلها منذ ذلك التاريخ، بفضل تلك الاحتياطات الاستطلاعية التي كان يقوم بها ، فعن طريق أذنه، كان يستطيع أن يرى كل شيء يجري في الممر خارج باب غرفته!. كان يميّز ويعرف هوية كل شيء يجري هناك.. كل طقطقة أو قرقعة أو خرير أو خشخشة. بل أصبح يستطيع تفسير الهدوء والسكون!

ولهذا ، فإنه يعلم الآن علم اليقين، بعد هذه الثواني القصيرة من التصنّت خلف الباب، أن الممر خالٍ من أي

شخص، وأن المرحاض غير مشغول، وأن الجميع مازالوا غرقى في نومهم.

فأزاح بيده اليسرى ترباس الباب، في حين أدار بيده اليمنى المقبض.. فانفتح الباب.

وما أن وضع قدمه على عتبة الباب المفتوح، وانثنى فخذه متأهباً للخطو أماماً، حتى وقعت عيناه عليها فجأة أمام الباب.. كانت تقف على بلاط الممر، على بعد نحو عشرين سنتيمتراً من العتبة واضحة في ضوء الصباح الباهت المتسرب من نافذة الممر الضيقة، بأرجلها الصغيرة الحمراء ذات المخالب الرفيعة، وبريشها الرمادي الأملس.. كانت: حمامة!

رأسها كانت تميل إلى الجانب، وتحدّق فيه بعينها اليسرى.. عين صغيرة تشبه قرصاً مستديراً.. بنية اللون،ويتوسطها سواد، ملأته رعباً، وهو يتأملها، ويتأمل موضعها: على جانب الرأس، بدون رموش أو حواجب.. عارية تماماً، موجّهة نحوه بلا أي اهتزازة خجل أو خوف، ومفتوحة على اتساعها. إلا أنه لمح فيها

شـيئاً مـن العزلـة والانكسـار!.. وبـدت لـه كأنهـا لا مفتوحة ولا مقفولة.. كانت بكل بساطة تبدو خالية من الحيـاة، أشـبه بعدسـة التصـوير، الـتي تبتلـع الضـوء الخارجي كله، ولا تعكس شيئاً منه إلى الخارج مرة أخرى.. ليس فيها أي توهج، ولا يصدر عنها أي شعاع، حتى ولو كان خافتاً.. ليس بها أي إشارة عابرة إلى أي شيء حي: كانت عيناً بدون نظرة حية.. وكانت تحدّق فيه.

ذعـر ذعـراً شـديداً.. لا.. لـيس هـذا تعـبيراً دقيقـاً، فالـذعز تمكّـن منـه فيمـا بعـد!.. الأصـح أن نقـول: ذُهـل ذهولاً شديداً. إذ إنه بقى متسمراً في مكانه لمدة خمس ثوان، وربما عشرة، يده ثابتة على مقبض الباب، وقدمه مرفوعة تأهباً للمشـي، لكنـه غير مستطيع التقدم إلى الأمام، أو التراجع إلى الخلف.

وفجأة صدرت عن الحمامة حركة ما.. ربما نقلت ثقلها من رجل إلى أخرى، أو ربما تمطّت قليلاً. في كل الأحوال، فإن جسدها قد اهتزّ بشكل ما وفي اللحظة

ذاتها، انطبق جفنان على عينيها: واحد من أعلى وواحد من أسفل. وإن شئنا الدقة نقول: انطبق على عينيها شيئان يشبهان الأجفان.. رقيقتان مطاطيتان، أو شفتان.وابتلعاها! فاختفت العين.

وللحظة وجيزة بدأ الذعر يتملك جوناثان.. فوقف شعر رأسه كله. وبقفزة واحدة إلى الخلف، كان داخل الغرفة، وردّ الباب بشدة خلفه، قبل أن تفتح الحمامة عينها مرة أخرى.

أدار قفل الباب بسرعة، ثم بثلاث خطوات مترنحة، وصل إلى السرير، وجلس عليه وهو يرتجف، وقلبه يدق،وكل جبينه الذي أصبح بارداً كالثلج، ينضح بالعرق.

أول ما سيطر على تفكيره، أنه سيصاب حالاً أو بعد قليل بجلطة في قلبه، أو بشلل، أو على الأقل بانهيار عصبي: "أنت مهيّأ لكل هذه الكوارث المرضية بحكم السن.. فبعد الخمسين يمكن للمرء أن يتعرض لمثل ذلك ولأتفه الأسباب".

هكذا قال لنفسه، وهو يسقط مستلقياً على جنبه فوق السرير، ساحباً الغطاء حتى أعلى كتفيه المرتعدين برداً. وظل يترقب ألماً داهماً ووخزاً شديداً في منطقتي الصدر والكتف!..

لقد قرأ ذات مرة في موسوعة الجيب الطبية، التي يقتنيها، أن هذه الأعراض، تسبق جلطة القلب أو السكتة القلبية، وذلك الغياب البطيء عن الوعي.

إلا أن شيئاً من هذا لم يحدث.. فنبضات القلب، التي كانت قد أسرعت، أبطأت الآن من سرعتها وخبطها الشديد..وأعراض الشلل النصفي لم تظهر. إذ كان قادراً على تحريك أصابع يديه وقدميه، والتحكم في عضلات وجهه.. مما يدل على سلامته من الناحية العضوية الجسدية، ومن الناحية العصبية.

وبدلاً من كل هذا، راحت كتلة من الأفكار المذعورة تحوِّم في رأسه، وكأنها سرب من الغربان السود يحلق في الهواء، ضابطاً بأجنحته، وناعقاً: "لقد انتهى أمرك يا جوناثان.. لست إلا كهلاً ميئوساً منه..

كيـف تسـمح لحمامـة أن ترعبـك إلى هـذا الحـد؟!..
فتقـذف بـك إلى غرفتـك وتطرحـك أرضـاً.. وتجعلـك
سـجيناً!.. سـتموت يـا جوناثـان.. سـتموت!.. إن لم يكـن
الآن.. فقريباً.. حياتك كلها كانـت خطـأ.. لقـد أفسـدت
حياتـك كلـها وزلزلـزت أركانهـا حمامـة!.. يجـب أن
تقتلها... ولكنـك لا تسـتطيع قتـل ذبابـة!.. ربمـا تسـتطيع
قتل ذبابة أو ناموسة أو صرصار.. ولكنـك لا تجـرؤ أبـداً
على قتل كائن من ذوي الدم الحـار.. كـائن يـزن رطـلاً..
مثـل هـذه الحمامـة!.. وربمـا تسـتطيع قتـل انسـان وتطلـق
عليه الرصاص.. فشيء كهذا يحدث سريعاً، ولا يخلّف
سوى ثقب صغير لا يزيد قطره عن ثمـاني ملليمترات.. إن
هـذا شـيء نظيـف ومسـموح بـه.. خصوصـاً إذا كنـت في
حالـة دفـاع عـن الـنفس.. كمـا أنـه وارد في الفقـرة الأولى
مـن قـانون الخدمـة المدنيـة لرجـال الحراسـة المسـلحين -
مثلك. بل إنه مطلوب، ولا يمكن لأحد أن يلومك عليـه..
ولكـن أن تطلـق النـار علـى حمامـة.. فهـذا مـا لا يمكـن
تصـوره أو قبولـه!.. إذ كيـف يمكـن لكـائنٍ أن يطلـق

النـــار علـــى حمامـــة؟!.. فالحمامـــة تطـــير، ويمكـــن أن يخطئها المرء بسهولة.. كما أنه من العبث والمجون أن يطلق شخص النار على حمامة.. ثم إنه ممنوع.. ويؤدي إلى سحب رخصة السلاح، ويتسبب ـ ربما ـ في فقدانك للوظيفة.. وأخيراً قد تدخل السجن!.. لا .. إنك لا تستطيع قتلها.. ولكن إذا تركتها حية، فلن تتمكن من العيش معها.. لم يحدث أبداً أن تمكن إنسان ما من العيش في مكان واحد مع حمامة.. فالحمامة هي رمز الفوضى العارمـة.. إنهـا ترتفـرف وتطـير في كـل الاتجاهـات.. وتنشب مخالبها في أي شيء.. وقد تنشبها في العينين!.. إنها تتبرز بدون انقطاع، وتنشر الجراثيم المهلكة، وفيروس مرض الالتهاب السحائي.

وهي لا تبقى أبداً وحيدة.. دائماً ما تجتذب إليها حمامات أخرى.. فتجامع وتتناسل بسرعة مذهلة.. وتجد نفسك عندئذ محاصراً بجيش من الحمام، بحيث لن تتمكن من مغادرة غرفتك أبداً.. وتموت إما جوعاً أو غرقاً في بركة بولك وبرازك!.. أو ترمي نفسك من

النافذة، فتسقط على الرصيف كتلة مهشمة. لكن هذا أيضاً يتطلب منك شجاعة.. لا تملكها. لذلك سوف تبقى سجيناً في غرفتك.. وتصيح بما يتبقى لديك من صوت طلباً للنجدة.. ويأتي رجال الإطفاء، ويرتقوا سلالمهم الطويلة كي يخرجوك من الغرفة.. وينقذوك من الحمامة!!.. من حمامة!.. بعدها تصبح مثار سخرية البناية كلها.. بل الحي كله: هل سمعتم؟!.. إن السيد جوناثان طلب إنقاذه من حمامة!.. هذا ما سيقولونه، وهم يشيرون إليك بأصابعهم. وسوف يحولونك إلى مصحة الأمراض العقلية... آه يا جوناثان.. إن حالتك ميئوس منها.. أنت ضائع لا محالة!".

كل هذا النعيق كان يدوِّي في رأسه.. وكان هو ضائعاً بالفعل، وحائراً، حتى أتى على فعل شيء لم يفعله منذ وقت طويل.. منذ كان طفلاً في حضانة الأطفال. إذ فتح كفيه ونظر لأعلى وراح يصلي:

ويا ربي!.. لماذا هجرتني هكذا؟.. لماذا تعاقبني بهذه الصورة؟.. أبانا الذي في السموات أنقذني من هذه الحمامة.. آمين"

لم تكن صلاته هذه ـ كما نرى ـ صحيحة!.. فقد كان ما تفوّه به عبارة عن لجلجة استدعتها ذاكرة مشوشة من بقايا تربية دينية ضحلة. إلا أن الصلاة ساعدته على أية حال!.. فأداؤها تطلّب منه حداً أدنى من التركيز، قلّل من الفوضى الفكرية التي كانت تزدحم بها رأسه. وشيء آخر ساعده، وبشكل أفضل، وهو شعوره بحاجته الشديدة إلى التبوّل، وإدراكه بأنه إذا لم يذهب فوراً إلى المرحاض، فربما بال على نفسه لا إرادياً وهو مستلقٍ على السرير. فتبتل مرتبة السرير الغالية الثمن ذات النوابض المعدنية، وربما ابتلت أيضاً قطعة الموكيت التي يفرش بها الأرضية.

أعادته هذه الأفكار إلى توازنه الفكري قليلاً، فهبّ واقفاً، متذمراً ولاعناً، وألقى نظرة حائرة وحانقة في نفس الوقت نحو باب الغرفة.

لا.. إنه لا يستطيع أن يتخطى عتبة باب الغرفة.. حتى لو كان هذا الطائر اللعين قد غادر مكانه، فإنه لن يتمالك نفسه حتى يصل إلى المرحاض المشترك، لذلك هرع إلى حوض الغسيل، ثم أنزل بنطلونه، وفتح الحنفية، وراح يتبول في الحوض!

لم يسبق له مطلقاً أن فعل شيئاً كهذا.. أن يتبول في هذا الشيء الأبيض النظيف الذي عادة ما يستخدم لغسل اليدين والوجه!

إن مجرد التفكير فيما فعله يصيبه بالهلع!.. إذ لم يكن يتصور أبداً أن يأتي يوم وينزلق هذا المنزلق، أو يفعل فعلاً مشيناً كهذا!

وبدأت الدموع تنهمر من عينيه، وهو يتأمل بوله يندفع بلا أي حياء، وبلا رادع، ويختلط بالماء، ثم ينزلق مقرقراً في البالوعة.

ورغم إحساسه بانحسار الضغط عن أسفل بطنه، وشعوره بالراحة، إلا أن خزياً كبيراً من نفسه كان قد تملكه.

حين انتهى، ترك الحنفية مفتوحة لبعض الوقت، ثم أحضر سائلاً مطهراً، وراح ينظف الحوض. فعل ذلك عدة مرات.. حتى تأكد أن كل آثار فعلته الشائنة قد زالت تماماً.

"مرة واحدة لا تُحسب"..

هكذا همس لنفسه، كما لو كان يعتذر لها، ولغرفته، ولحوض الغسيل!

"مرة واحدة لا تُحسب.. لقد حدث هذا تحت ضغط الظروف القاهرة..وهو بكل تأكيد لن يتكرر مرة أخرى.."

وهدأت نفسه.. فعملية التنظيف،وإرجاع زجاجة السائل المطهر إلى مكانها، وملمس قطعة القماش التي نشّف بها الحوض - هذه الأفعال التي طالما مارسها في أوقات ضيقه وضجره في الماضي - أعادت إليه روحه العملية، وجعلته يتوازن نفسياً من جديد. فنظر إلى ساعته، فوجدها تعدّت السابعة والربع... في هذا الوقت يكون عادة قد انتهى من حلاقة ذقنه، وبدأ في تنظيم

سريره، وإعادة فرد الملاءة والغطاء عليه.. إذن فهو لم يتأخر كثيراً، وما زال أمامه متسع من الوقت، خصوصاً إذا استغنى عن تناول فطوره المعتاد، وبهذا فإنه سيسبق برنامجه اليومي بسبع دقائق تقريباً. المهم أن يتمكن من مغادرة الغرفة في الساعة الثامنة وخمس دقائق على أكثر تقدير، لأن عليه أن يكون في البنك في تمام الثامنة والربع. إنه لا يعرف بعد كيف سيتمكن من تحقيق ذلك، إلا أنه مازال يملك فرصة أخيرة تنتهي بعدخمسة وأربعين دقيقة، وهي مدة كافية.

إن خمسة وأربعين دقيقة تعتبر فترة طويلة، حين يكون المرء قد رأى الموت بعينيه تواً، ونجا من سكتة قلبية في آخر لحظة!

بل إن هذه الفترة تبدو أطول بكثير، حين يتخلص المرء من الضغط الشديد المستبد لمثانة ممتلئة بالبول!

وهكـذا قـرر أن يتصـرف كمـا لـو أن شـيئاً لم يحدث، وأن يستمر في أداء روتينه اليومي. ففتح حنفية المياه، وبدأ في حلاقة ذقنه.

أثناء الحلاقة، بدأ يفكر بشكل عميق: "لقد خدمت يا جوناثان في الهند الصينية، واشتركت في القتال هناك سنتين كاملتين، وتغلبت أثناءهما على أحوال كثيرة!..

فإذا استجمعت الآن كل شجاعتك، وتجلّدت، وواتاك الحظ، فربما تنجح في الهروب من غرفتك.. ولكن ماذا لو نجحت فعلاً في الهروب؟.. ماذا لو تمكّنت بالفعل من تجاوز هذا الكائن البشع وبلغت حتى مكان السلم، ونجحت في الوصول إلى بر الأمان دونما إصابات؟.. سيكون بوسعك الذهاب إلى العمل، وقضاء نهار اليوم سليماً معافى.. ولكن ماذا ستفعل بعد ذلك؟.. بعد انتهاء يوم عملك، أين ستذهب في المساء؟.. وأين ستقضي ليلتك؟"

إن كون جوناثان لا يريد رؤية الحمامة مرة أخرى، بعد أن ينجو منها، وكونه لن يستطيع التعايش معها تحت سقف واحد.. يوماً واحداً أو ليلة أو حتى ساعة، كانت بالنسبة له مواقف مبدئية راسخة لا لبس فيها أو تراجع عنها.

لهذا توجّب عليه أن يهيئ نفسه لقضاء الليلة، وربما الليالي التالية، في فندق.. أي فندق. وهذا معناه أن يأخذ معه ماكينة الحلاقة وفرشاة الأسنان وملابس داخلية وأخرى خارجية، بالإضافة إلى دفتر شيكاته، وربما دفتر التوفير أيضاً. إن لديه في حسابه الجاري ألفاً ومائتي فرنك، وهذا يكفيه مدة أسبوعين، شرط أن يكون الفندق الذي سينتقل للإقامة فيه رخيصاً. وإذا كانت الحمامة ماتزال تفرض حصارها على غرفته، ولن تبرح مكانها، فلابد له حينئذ أن يسحب رصيده الموجود في دفتر التوفير، والذي يبلغ ستة آلاف فرنك.. إنه مبلغ كبير، يسمح له بالإقامة في الفندق عدة شهور. ثم هناك راتبه الشهري الذي يتقاضاه من البنك الذي

يعمل به، والبالغ ثلاثة آلاف وسبعمائة فرنك صافية بعد خصم الضرائب والتأمينات.. آه.. ولكن هناك الثمانية آلاف فرنك التي يتوجّب عليه دفعها إلى مدام لاسال في آخر العام كدفعة نهائية من ثمن الغرفة.. تلك الغرفة التي لن يكون بإمكانه بعد الآن السكن فيها!.. كيف سيستطيع أن يطلب من مدام لاسال إمهاله في تسديد الدفعة الأخيرة؟.. إنه لن يكون قادراً بالطبع على أن يقول لها: "سيدتي.. إنني لا أستطيع تسديد الدفعة الأخيرة، حيث أنني أقيم منذ شهور في فندق بسبب أن الغرفة التي اشتريتها منك تحاصرها حمامة!".. لا.. إنه لن يستطيع أن يقول شيء كهذا..

وتنبّه جوناثان فجأة، وهو يحسب تلك الحسابات المالية إلى أنه يمتلك خمس فرنكات ذهبية، كل منها يساوي ما لا يقل عن ستمائة فرنك. كان قد اشتراها سنة ١٩٥٦ خلال الحرب الجزائرية خوفاً من التضخم المالي. يجب عليه في كل الأحوال ألا ينساها، كما أنه يمتلك أيضاً سواراً ذهبياً ورثه من أمه، وجهاز راديو

وقلماً فضياً ثميناً ، كان قد تلقاه هدية من البنك بمناسبة أعياد الميلاد.. إذا تمكن من بيع كل هذا ، فسوف يكون قادراً ـ مع التقشف الشديد ـ على الإقامة في الفندق مدة أطول، بالإضافة إلى تسديد الثمانية آلاف فرنك لمدام لاسال. واعتباراً من أول يناير سيكون الوضع أفضل. إذ ستصبح الغرفة ملكاً خاصاً له، ولن يكون مطالباً بتسديد إيجار شهري.. هذا غير أن الحمامة ربما تكون قد ماتت قبل انقضاء فصل الشتاء. وفكّر: "كم يمكن أن تعيش الحمامة؟.. سنتين .. ثلاثة.. عشرة؟.. وماذا لو كانت هذه الحمامة كبيرة في السن؟.. ربما تموت خلال أسبوع.. ربما تموت اليوم.. بل ربما ما جاءت إلى هنا إلا لتموت!".

بعد أن انتهى جوناثان من حلاقة ذقنه، نزع سدادة الحوض، ثم غسل الحوض ثم وضع السدادة، وملأ الحوض مرة أخرى، وغسل يديه وقدميه، ثم نظف أسنانه بفرشاة الأسنان، وأخيراً نزع السدادة، وغسل الحوض، ثم جففه بقطعة قماش.

ثم قام بترتيب السرير، ثم مدّ يده ليسحب من تحته حقيبة قديمة من الكرتون المقوى، كان يستعملها عادة لتخزين الملابس المتسخة التي يأخذها مرة كل شهر إلى المغسلة العامة.

وهي نفس الحقيبة التي كانت معه سنة ١٩٤٢ أثناء سفره من (شارنتون) إلى (كافايون)، والتي اصطحبها معه إلى باريس سنة ١٩٥٤م.

أفرعها من محتوياتها، ووضعها على السرير، ثم راح يملؤها بملابس نظيفة، وبعض أحذيته الخفيفة، ومواد التنظيف، والمكواة، ودفتر الشيكات، والأشياء الثمينة التي يقتنيها.. كان كمن يهيء نفسه للسفر.وأثناء قيامه بذلك ترقرقت الدموع من عينيه.. ليس من الخزي هذه المرة، بل من الإحباط واليأس. فلقد تملّكه شعور كأنما يد أمسكت به وألقته إلى الوراء ثلاثين سنة. أوكما لو أنه فقد ثلاثين سنة من عمره.

كانت الساعة تشير إلى الثامنة إلا ربعاً، حين انتهى من ترتيب أشيائه بالحقيبة، وبدأ في ارتداء بذلة العمل. ارتدى أولاً بنطلونه الرمادي، ثم قميصه الأزرق، ثم جاكتته الجلدية. ثم ثبّت حزامه الجلدي العريض المجهز بحامل المسدس، في وسطه، وأخيراً وضع قبعته الرمادية على رأسه. وبدأ يهيئ نفسه ويستعد لمواجهة الحمامة!

كان يشعر بالقرف الشديد والضجر من مجرد تخيّل أن الحمامة ربما تلامس جسده، أوتنقره في كعب قدمه، أو تطير وتقف على رأسه بساقيها ذوي المخالب الرفيعة الحادة. لهذا راح يحصّن نفسه، فقام بارتداء حذائه ذي الرقبة المرتفعة، والمبطن بفرو الخروف، الذي لا يرتديه عادة إلا في أشد أيام الشتاء برداً، بدلاً من حذائه الصيفي الخفيف. ثم ارتدى البالطو الصوف، وزرّره من أعلاه إلى أسفله، دون أن يغفل زراراً واحداً. وقام بلف شال صوفي حول كامل رقبته،وحتى أسفل ذقنه، وحمى يديه بقفازين جلديين مبطنين، وأخيراً

أمسك في يده اليمنى مظلة المطر... بعد كل هذه التحصينات، وفي تمام الساعة الثامنة إلا سبع دقائق، كان جاهزاً لتنفيذ خطة الهرب من الغرفة! فخلع قبعته عن رأسه، وألصق أذنه بالباب، ليرى بها ما إذا كان هناك بالممر شيء أو شخص ما. ولمّا لم يسمع أي صوت، وضع قبعته مرة أخرى على رأسه، وثبّتها جيداً فوق جبهته، ثم جر الحقيبة ووضعها عند الباب، لتكون جاهزة لخطة خروجه من باب الغرفة.

علق المظلة على رسغه ليجعل قبضة يده اليمنى حرة، ويمسك بها مقبض الباب، ثم وضع يده اليسرى على الترباس، وسحبه، ثم أدار المقبض، وورب الباب قليلاً ليستطلع!

لم تكن الحمامة هناك.. قرب الباب.. كما رآها أول مرة. فقط بالمكان الذي كانت تقف به، كانت هناك بقعة ذات لون أخضر زمردي، بحجم قطعة النقود المعدنية الصغيرة. كما كانت هناك ريشة بيضاء صغيرة، تهتز بفعل تيار الهواء الناتج عن فتح باب الغرفة.

بدأ جوناثان يرتعد من شدة القرف، وهَمّ بصفق الباب والعودة إلى الداخل كانت طبيعته الغريزية تريد التقهقر والرجوع إلى ملجئه الآمن: غرفته.. بعيداً عن هذا الرعب في الخارج. لكنه تنبّه إلى أن تلك البقعة ذات اللون الأخضر الزمردي، لم تكن الوحيدة، بل كانت هناك بقع كثيرة غيرها، تنتشر في كل مساحة الأرض أمام المدخل.

وهنا حدثت المفاجأة: فالعدد الكبير لتلك البقع المثيرة للتقزز، لم يوهن من عزيمة جوناثان، كما هو متوقع، بل حفّزها! ربما لو أن الأمر قد اقتصر على تلك البقعة الوحيدة، والريشة الصغيرة، لانسحب وأغلق عليه باب الغرفة إلى الأبد!.. أما وقد تبرزت الحمامة في كل أنحاء المدخل، وبهذا الانتشار.. فذلك ما حفز قواه وفجّر كل ما يملكه من شجاعة، فقام بفتح باب الغرفة على مصراعيه.

كانت الحمامة هناك، على بعد متر ونصف، في الزاوية الضيقة المعتمة من نهاية الممر. رآها.. وألقى نظرة

سـريعة باتجاهـهـا ، لم تسـمح لـه بمعرفـة مـا إذا كـانـت نائمة أم مستيقظة، أو ما إذا كانت عيناها مغلقتين أم مفتوحتين؟!.. إنه على أية حال لم يكن يريد أن يعرف.. لم يكن يريد حتى رؤيتها - فهو قد قرأ مرة في كتاب عالم الحيوانات المدارية ، أن حيوانات معينة ، وخصوصاً القـردة مـن فصـيلة "الأورانـج أوتـان" ، تقـوم بمهاجمـة الإنسـان في حالـة واحـدة فقـط: إذا مـا نظـر في عينيهـا. بينمـا إذا تجاهلـها ، ولـم تقـع عينـه علـى عينهـا ، فإنهـا تتركه في سلام - وربما ينطبق هذا على الحمام أيضاً!

على كل حال، فقد قرر جوناثان التصرف كما لو أن الحمامة ليست موجودة.. أو على الأقل ألا ينظر إليها.

وبدأ يدفع بحقيبته إلى خارج الغرفة ، في الممر، بتأنٍ وانتباه شديد ، حتى لا تلمس بقعة من البقع الخضراء الزمرديـة ، ثـم فـتح مظلتـه وأمسـكها بيـده اليسـرى ، ووضعها أمام وجهه وصدره، كما لو كانت درعاً. ثم خـرج إلى الممـر ، غـير غافـل عـن البقـع الخضـراء علـى الأرض، وأغلق الباب خلفه. إلا أن تظاهره بتجاهل وجود

الحمامة اختفى في تلك اللحظة، وبدأ التوتر ينتشر في أوصاله، وهو يحاول إخراج مفتاح الغرفة بأصابع يده التي يرتدي فيها قفازاً. وحين لم يتمكن من إخراجه بسرعة، بدأ توتره يزيد وارتجفت يداه، وكادت المظلة تسقط على الأرض، فسارع إلى التقاطها، وتثبيتها بين خده وكتفه، في حين سقط المفتاح منه على الأرض، بعيداً شعرة واحدة عن إحدى البقع.

انحنى على الأرض، والتقطه بعد عذاب، ثم تمكن من إدخاله في ثقب الباب، بعد أن أخطأه ثلاث مرات، أداره مرتين، وفجأة، خُيِّل إليه أنه سمع صوت رفرفة خلفه مباشرة.. (أكان الصوت صوت رفرفة أجنحة أم صوت احتكاك المظلة بالحائط؟..) لكنه سمع الصوت ذاته مرة أخرى.. (هو إذن صوت رفرفة أجنحة!) دَبّ الذعر في نفسه، فسحب المفتاح بسرعة من ثقب الباب، بيده المرتعشة، وخطف حقيبته، وتحرك ليهرب. المظلة المفتوحة احتكت بالجدار، والحقيبة اصطدمت بأبواب الغرف الأخرى، أما في منتصف الممر، فقد سدت درفتا

النافذة المفتوحة الطريق أمامه، فقلص نفسه ليمر من المسافة البسيطة بينهما وبين الحائط، فانحشرت المظلة، وتمزقت وهو يحاول المرور ، لكنه لم يهتم بالأمر.. إذا كان كل همه في تلك اللحظات هو الفرار بعيداً.. بعيداً.. بعيداً.

فقط حين بلغ عتبة السلم، توقف للخطة، وطوى المظلة التي كانت تعيقه، ثم التفت وألقى نظرة سريعة إلى الخلف.

كانت أشعة الشمس تخترق النافذة الصغيرة، وترسم مربعاً شديد الضياء، يصعب على العين النظر خلاله، وسط الظل القاتم حولها في الممر، فضيّق عينيه، وحدّق بتركيز، فتمكن من رؤية الحمامة، وهي تتحرك وتتجه نحوه، مبتعدة عن الزاوية المعتمة، بخطى سريعة متقافزة، ثم وهي تقف وتستقر تماماً أمام باب غرفته. فاستدار، وقد تملّكه شعور باليأس والتشاؤم، وبدأ في هبوط السلم، وهو موقن بأنه لن يتمكن أبداً من العودة.

مـن خطـوة إلى أخـرى علـى السـلم ، بـدأت أعصـابه تهدأ قليلاً. وحين بلغ أول درجات السلم بالطـابق الثـاني، شعر بالحر الشديد، فعاد إليه وعيه، وتذكـر أنه مـازال يرتـدي البـالطو والشـال والحـذاء الثقيـل المـبطن بفـرو الخروف. وأدرك أنه ربما يخرج أحد سـكان العمـارة مـن بـاب المطـبخ المطـل علـى سـلم الخـدامين الخلفـي الـذي يهبط عليه الآن، فربما خرجت إحدى الخادمـات بقصـد التوجه إلى السوق.. أو أخرج السيد ريجو زجاجات النبيذ الفارغة، ليضعها أمام باب المطبخ، أو ربما خرجت مدام لاسـال لسـبب مـا ، فهـي تسـتيقظ مبكـراً ، ولابـد أنهـا مسـتيقظة الآن... فـالمرء يسـتطيع أن يشـم رائحـة قهوتهـا النفّـاذة الـتي تمـلأ السـلم.. ربمـا تفـتح الآن بـاب مطبخهـا وتخرج، فتراه واقفاً أمامها تغمره أشعة شمس أغسـطس السـاطعة، وهو في زيّه الشتوي غير المبرر ارتداؤه في ذلـك الوقت، والمثير للسخرية!.. ولـن يكـون بإمكـانـه تجاهـل حرج مثل هذا الموقف، دون أن يقول شيئاً.. ولكـن مـاذا عسـاه أن يقـول؟!.. سـيكون عليـه اخـتراع كذبـة مـا..

ولكن!.. أية كذبة؟.. إن مظهره لا يمكن أن يكون له أي تبرير أو سبب قابل للتصديق والقبول!.. وكل من سيراه على هذه الحال، لا يمكن أن يظن إلا أنه مجنون.

لذلك وضع حقيبته على الأرض، وفتحها، وأخرج منها حذاءً حفيفاً، ثم خلع بسرعة حذاءه الشتوي وقفازيه والبالطو والشال. ووضع الشال والقفازين والحذاء الشتوي في الحقيبة، بينما ألقى البالطو على ذراعه. وبذلك يكون مظهره مألوفاً لمن يصادفه أو يراه. على الأقل سيكون بإمكانه الإدعاء بأنه ذاهب إلى المغسلة بثيابه المتسخة، وسيمر في نفس الوقت على محل تنظيف الملابس بالبخار ليسلمهم البالطو المتسخ.. وهكذا تنفس الصعداء وراح يتابع هبوطه على السلم.

حين وصل إلى فناء العمارة الخلفي، فوجئ بحارسة العمارة، وهي عائدة بسلال القمامة الفارغة المحمّلة على عربة صغيرة، فأحس وكأنه قد ضُبط متلبساً بجريمته.

تجمد في مكانه، وعجز عن التراجع وإخفاء نفسه في الظلام الخفيف لمدخل السلم، بعدما رأته بالفعل. واضطر إلى متابعة تقدمه.

بادرته بالقول وهو يحاول تجاوزها بسرعة:

- صباح الخير يا مسيو نويل..

فأجابها مغمغما:

- صباح الخير يا مدام روكار..

ولم يزد على ما قاله حرفاً..

لم يسبق له أن تحدث معها أبداً، وطيلة عشر سنوات ـ مدة وجودها بالعمارة ـ لم يكن يقول لها أكثر من: صباح الخير مدام روكار..مساء الخير مدام روكار.. أو: شكراً مدام روكار..عندما كانت تسلمه بريداً خاصاً به.

لم يكن يتكلم معها أكثر من ذلك.. لا لأنه لا يستلطفها، فهي ليست منفّرة أو سيئة.. إنها في الواقع لا تختلف عن سابقاتها، فهي ككل حارسات العمارات، لا يمكن للمرء أن يتنبأ بعمرها: بين الخمسين والستين.

وككل حارسات العمارات، فهي تتمايل في مشيتها كالإوزة.. ذات جسد مملوء، ناصعة البياض، ولها رائحة خاصة نفاذة.

حين لا تكون مشغولة بشيء أو عمل تؤديه، تفريغ سلال القمامة وإرجاعها إلى أماكنها مرة ثانية أمام الأبواب، أو كنس وتنظيف السلم، أو شراء حاجياتها. كانت تجلس في غرفتها الصغيرة المضاءة بالنيون، الواقعة بالقرب من سلم الخدامين، تخيط أو تكوي شيئاً، بينما جهاز التليفزيون يعمل طوال الوقت، وتسكر نفسها بنبيذ رخيص ـ كما تفعل حارسات العمارات!

لم يكن جوناثان يحمل في نفسه أية ضغينة تجاهها، لكنه كان بشكل عام لا يحب حارسات العمارات، وذلك لأنهن يحشرن أنوفهن في كل شيء، ويراقبن الناس (بسبب أو لغير سبب) بشكل دائم، بحكم مهنتهن!.. ومدام روكار بشكل خاص، كانت تراقبه هو بالذات (أو هكذا كان إحساسه) بصورة

مستمرة، لدرجة أنه من شبه المستحيل أن يستطيع تخطيها دون أن يلفت انتباهها؛ فنظرة سريعة من طرف جفنها - حتى ولو كانت غافية على كرسيها في غرفتها، حيث اعتادت أن تغفو قليلاً ساعة القيلولة أو بعد تناول العشاء أو سماع الصرير الخافت لباب مدخل العمارة، كان يكفي لإيقاظها لحظياً فترى كل مَنْ يدخل أو يخرج.

ولم يسبق لإنسان أن راقب جوناثان، أو تأمله، بمثل هذه الكثافة، كما كانت تفعل مدام روكار. فهو ليس له أصدقاء، وفي البنك كان يعتبر من الموجودات!.. والزبائن كانوا ينظرون إليه على أنه شيء مكمل لشكل البنك، وليس كإنسان!.. بينما في (السوبر ماركت)، أو في الطريق، أو في الأتوبيس، فالأمر كان مختلفاً.. إذ تصبح خصوصيته محمية من خلال العدد الكبير من الناس حوله.

فقط مدام روكار، كانت تراه، وتتعرف على الجديد في حياته كل يوم، مرتين على الأقل: مرة حين

يـذهب إلى عملـه بالبنـك صـباحاً، ومـرة حـين يعـود في المساء.. كانت تتفحصه دونما خجل أو كلفة، بحيث كانت تلم بكل تفاصيل حياته، وما يطرأ عليها من تغيير: ماذا يرتدي من ملابس؟.. كم مرة يبدّل قميصه في الأسبوع؟.. هل غسل شعره اليوم أم لا؟.. ماذا يجلب معه في المساء للعشاء؟.. هل يأتيه بريد؟.. وممن؟!.

وبالرغم من أن جوناثان لم يكن يضمر أي عداء لمدام روكار، ويعلم أن نظراتها المفضوحة إليه، إنما تنبع من إخلاصها لواجباتها الوظيفية، وتفانيها في عملها. إلا أن هذا لم يخفف من إحساسه بأن هذه النظرات هي بمثابة اتهامات صامتة موجهة إليه، ولذلك كان كلما رآها، يشعر بثورة غضب عارمة تدوم لحظات قصيرة، حتى بعد مرور كل هذه السنوات. على رؤيته ومعرفته بها.

ودائماً ما كان يسأل نفسه: "لماذا بحق الشيطان تتأملني هكذا؟.. لماذا تقتحم خصوصيتي وتستبيحها

بهـذا الشـكل، ولا تـدعني في حـالي وتتجـاهلني؟ لمـاذا يكون الناس طفيليين إلى هذا الحد المقرف؟!

واليوم بالذات، دون أي يوم آخـر، وبسـبب مـا جـرى له، كان شديد الحساسية، أكثر من أي وقت مضـى، وكـان كمـن يجـر بؤس حياتـه وراءه بطريقـة فاضـحة، في شـكل حقيبـة ومعطـف، لـذلك تلقـى نظـرات مـدام روكار إليه، بشكل أكثر إيلاماً من المعتـاد. وبـدت لـه تحيتهـا: "صـباح الخـير مسـيو نويـل".. كأنهـا سـخرية مقصودة، ضخّمت ثورته التي كان يكبتها دائماً خلف سد لياقته، وتحولت إلى غضب جامح، جعلـه يُقـدم علـى فعـلٍ لم يسـبق لـه أن قـام بـه: فبعـد أن تجاوزهـا، توقـف مرة واحدة.. فجأة، ووضع حقيبته على الأرض، ثم وضع فوقهـا البـالطو، ورجـع، وهـو مصـمم علـى أن يضـع حـداً لنظراتها المتطفلة.

لم يكن يدري ما الذي سيقوله أو سيفعله على وجه التحديد، وهو متجه نحوها مباشرة. لكنه كان يعـرف أن عليه أن يقول أو يفعل شيئاً.

وبدا كأن غضبه الجامح هو الذي يدفع بها في اتجاهه كما بدت شجاعته في هذه اللحظة بدون حدود.

كانت قد انتهت من إعادة سلال القمامة إلى مكانها، وتهمُّ بدخول غرفتها، حين اعترضها في منتصف الفناء.. كان يفصل بينه وبينها نصف متر تقريباً، ولم يسبق له أن رأى وجهها من مسافة قريبة كهذه لذلك استطاع أن يميز نعومة بشرة وجهها المكتنز الذي يبدو كحرير قديم ضعيف النسيج، ولم ير في عينيها البنيتين ذلك الفضول النفّاذ، بل كان في نظراتها شيء من الرقة التي تشبه إلى حد ما نظرات صبية خجولة.

وبالرغم من أن التفاصيل التي رآها لم تتفق مع الصورة التي كانت في ذهنه عنها، إلا أنه لم يسمح لتلك التفاصيل بأن تربكه.

فرفع يده ليلمس طرف قبعته، مضيفاً بهذه الحركة صفة جديدة على حضوره، وبدأ الكلام بلهجة قاطعة:

- مدام.. عندي كلمة أريد أن أقولها لك.

في هذه اللحظة، لم يكن يعرف ما الذي سيقوله!

- نعم مسيو نويل!

أجابته، ثم قامت بإراحة رأسها بين كتفيها بحركة متشنجة، فبدت كالطائر الصغير الذي يتملكه الخوف. ولاحظ جوناثان ذلك، ثم أعاد ما قاله بنفس اللهجة القاطعة:

- مدام روكار.. إنني أريد أن أقول لك..

ثم وهو في ثورة غضبه، ودونما إرادة منه، فوجئ بسماع صوته نفسه وهو يقول:

- أمام غرفتي يوجد طائر يا مدام روكار.

ثم أردف موضحاً:

- إنها حمامة.. وهي تجلس أمام غرفتي على بلاط الممر..

وهنا فقط، تمكن من السيطرة على حديثه المتدفق من لا وعيه، وأداره إلى الوجهة التي كان يريدها، فقال:

- هـذه الحمامـة يـا مـدام، لوّثـت ممـر الطـابق السادس كله ببرازها.

نقلـت مـدام روكـار نقطـة ارتكـاز جسـدها بـين جذعها الأيمن والأيسر عدة مرات، وأراحت رأسها بين كتفيها بشكل أعمق مرة أخرى، ثم قالت:

- ومن أين جاءت هذه الحمامة يا مسيو نويل؟!

- لا أعلم.. يبـدو أنهـا اقتحمـت نافـذة الممـر.. فالنافـذة كانـت مفتوحـة.. وحسـب تعليمـات أصـحاب العمارة، فإن النافذة يجب أن تبقى دائماً مغلقة.

- ربما قام أحدهم بفتحها بسبب الحر.

- إلا أنهـا يجـب أن تظـل مغلقـة، وخصوصـاً في الصيف. لأن الرياح إذا هبّت، سوف تصفع النافذة بعنف وتكسـرها، في صـيف ١٩٦٢ حـدث ذلـك بالضـبط، وتكلف إصلاحها آنذاك مائة وخمسين فرنكاً.. ومنذ ذلك اليوم تم التنبيه على ساكني العمارة بأن النافذة يجب أن تبقى دائماً مغلقة.

لاحـــظ جوناثـــان أن تلميحـــه الـــدائم إلى تعليمـــات العمارة ومالكها ، فيه شيء من السذاجة ، وربما أثار السخرية. وهو في الواقع لم يكن يهتم بكيفية دخول الحمامـــة ، ولا يريـــد أن يـــتكلم دائمـــاً عنهـــا ، فهـــذه المشــكلة تخصــه وحــده.. كــان يريــد أن يفــرغ غضــبه الدفين من نظرات مدام روكار الفضولية إليه ، وقد تمّ له هذا في بداية حديثه معها.

إلا أنه الآن ، وبعدما هدأ غضبه ، لم يعد يدري ماذا سيقول بعد ، إلا أن مدام روكار هي التي بادرت بالقول:

- يجب أن تُطْرد الحمامة ، وتُغْلق النافذة!

قالت ذلك: وكأنه أسهل الأشياء إنجازاً في العالم ، أو كأنما سيعود كل شيء إلى طبيعته بعد ذلك!

أما جوناثان ، الذي كان مايزال على صمته ، فقد نظر طويلاً في عينيها ، وبدا كالمحاصر أو المأخوذ ، المعرَّض لخطر الغرق في مستنقع بني اللون وحميم!.. كان عليه أن يغلق عينيه لبضع لحظات حتى يتمكن من النجاة ، ثم تنحنح ليستعيد صوته ، وقال:

- إن الأمر...

وتنحنح مرة أخرى، وقال:

- إن الأمر السيئ هو وجود بقع كثيرة.. بقع خضراء كثيرة.. وريش أيضاً.. لقد قامت بتلويث الممر كله.. هذه هي المشكلة الرئيسية.

فأجابته:

- بالطبع يا مسيو نويل.. يجب تنظيف الممر.. ولكن ينبغي أولاً طرد الحمامة.

- نعم.. نعم.. طبعاً!

ثم قال لنفسه: "ما الذي تقصده هذه المرأة؟.. ماذا تقصد بالضبط؟!.. ربما تقصد أنه يجب عليَّ أنا القيام بطرد الحمامة!

وودّ لو أنه لم يتجرأ أبداً على الحديث معها.. فأعاد ما قاله وهو يتلعثم:

- نعم.. نعم..

ثم أضاف:

يجب .. يجب طرد الحمامة... أنا.. أنا كنت سأطردها بنفسي.. لكني لم أتمكن من ذلك.. فكما ترين أنا مشغول.. أحمل غسيلي إلى المغسلة، ويجب أن أسلم المعطف لمحل التنظيف لينظفه.. ثم بعد ذلك أذهب إلى عملي.. إنني في غاية العجلة يا مدام روكار.. لهذا لا يمكنني أن أقوم بطرد الحمامة.. فقط أردت إبلاغك بالأمر، وخصوصاً فيما يتعلق بالبقع المنتشرة على أرض الممر، إن اتساخ الممر ببراز الحمامة هو المشكلة أساساً، ويتنافى - كما تعلمين - مع تعليمات مالك العمارة.. إن نظام العمارة ينص على وجوب المحافظة على نظافة المدخل والسلم والمرحاض المشترك، أليس كذلك يا مدام روكار؟!

لم يسبق له في حياته كلها، أن تحدث حديثاً ملتوياً هكذا.. كما فعل الآن.. وأكاذيبه بدت له مفضوحة بشكل صارخ، والحقيقة الوحيدة التي كان على هذه الأكاذيب أن تخفيها هي أنه لم ولن يستطيع إجبار الحمامة على الخروج بل إن الحمامة هي التي أجبرته

على الخـروج أو: الفـرار، هـذه هـي الحقيقـة الـتي بـدت مكشـوفة وبشـكل مـؤلم..وحتـى لـو لم تكـن مـدام روكـار قد سمعتهـا منـه، إلا أنهـا بالتأكيـد استطاعت قراءتهـا في وجهـه لهـذا كـان يشـعر بالـدم ينـدفع إلى رأسه، وباحمرار الخجل يغطي وجنتيه.

إلا أن مدام روكار تصرفت وكأنها لم تلاحظ أي شيء، وربما لم تلاحظ بالفعل، فقد قالت:

- إنـني أشـكرك يـا مسـيو نويـل علـى هـذه المعلومـة.. وسـوف أقـوم بالاهتمـام بـالأمر في أول فرصـة سـانحة.

ثم أومأت برأسها، واستدارت لتذهب إلى المرحاض الخـاص بهـا، بجانـب غرفتهـا، واختفـت هنـاك، بينمـا كـان جوناثـان يلاحقهـا بعينيـه، وهـو يفكـر بينـه وبـين نفسه بأنه إذا كان هناك أي أمل في أن أحداً ما سيقوم بإنقـاذه مـن الحمامـة، فقـد تلاشـى هـذا الأمـل الآن، مـع النظـرة الأخـيرة الموحشـة الـتي ألقتهـا مـدام روكـار باتجاهه، وهي تختفي وراء باب مرحاضها الصغير.

قال لنفسه: "إنها لن تهتم بأي شيء.. لن تهتم أبداً بأي شيء.. ولماذا تهتم؟.. هي حارسة العمارة فقط.. وبصفتها هذه ، فهي ملزمة بتنظيف السلم والممرات، وتنظيف المرحاض المشترك مرة في الأسبوع.. أما الحمامة.. فهي ليست ملزمة بطردها..وبعد الظهر، على أقصى تقدير..ستكون قد نسيت الأمر برمته، بعد أن تتناول عدة كؤوس من النبيذ الرخيص، وتغيب عن الوعي.. هذا إذا لم تكن قد نسيت الأمر الآن بالفعل".

في تمام الساعة الثامنة والربع، كان جوناثان يقف أمام البنك : قبل خمس دقائق من وصول مسيو فيلمان نائب المدير، ومدام روك رئيسة الحسابات. حيث يقوم ثلاثتهم عادة بفتح البنك. فيفتح أولاً جوناثان، الباب الحديدي الخارجي، ثم تفتح مدام روك الباب الزجاجي المسلح الذي يليه. ثم أخيراً يفتح مسيو فيلمان الباب الزجاجي المسلح الداخلي. بعد ذلك يدخل جوناثان ومسيو فيلمان معاً مفتاحيهما في جهاز الإنذار، ليوقفاه عن العمل. ثم يجيء دور مدام روك ومسيو فيلمان

ليفتحا معاً الباب المزدوج الأقفال المضاد للحريق الذي يؤدي إلى القبو، ليفتحا بعده غرفة الخزينة، وبينما هما يفعلان ذلك، توجه جوناثان إلى غرفة خلع الملابس المجاورة لدورة المياه، ليضع حقيبته والبالطو في الدولاب الخاص به، بعدها وقف عند الباب الزجاجي المسلح الداخلي، ليقوم بإدخال الموظفين، الذين يصلون تباعاً، وذلك بالضغط على زرّين يفتحان ويغلقان البابين الداخلي والخارجي على التوالي، بحيث ينفتح الباب الثاني في حين ينغلق الباب الأول، وبالعكس.

في الساعة الثامنة وخمس وأربعين دقيقة، اكتمل وصول موظفي البنك، واتخذ كل منهم موقعه فيه. وغادر جوناثان مبنى البنك ليتخذ موقعه الثابت أمام بوابته الرئيسية على العتبة الرخامية المرتفعة عن أرض الشارع بثلاث درجات رخامية أيضاً.. مكان عمله اليومي.. الذي يمارسه منذ ثلاثين عاماً. ولا يتطلب منه أكثر من أن ينتصب واقفاً أمام المدخل، أو يروح ويجئ على العتبة الرخامية بخطوات صغيرة: من التاسعة

صباحاً، وحتى الواحدة بعد الظهر، ومن الثانية حتى الخامسة والنصف مساءً.

حوالي الساعة التاسعة والنصف، وبين الرابعة والنصف والخامسة، كان هناك خروج عن هذا المألوف الذي يمارسه جوناثان كل يوم، يفرضه وصول ومغادرة سيارة مسيو رودلز مدير البنك.

في تلك الأوقات، كان على جوناثان أن يترك مكانه الذي يقف فيه على العتبة الرخامية، أمام مدخل البنك ويسرع نحو بوابة فناء البنك الخلفي، الذي يبعد حوالي اثني عشر متراً، ليفتح البوابة، ثم يضع راحة يده مبسوطة على مقدمة قبعته، بحركة تحية واحترام، وهو يفسح الطريق أمام السيارة، ويدعها تمر، لتستقر بالفناء. الشيء ذاته كان يحدث أحياناً في الصباح الباكر، أو بعد الظهر، حينما تصل الشاحنة الزرقاء المصفحة الخاصة بشركة (برينك) للمنقولات الثمينة، فكان عليه أيضاً أن يقوم بفتح البوابة الحديدية الثقيلة للفناء الخلفي، ويوجه التحية

لركابها.. وطبعاً ليست تحية الاحترام ذاتها، بيده المبسوطة على طرف قبعته، وإنما تحية سريعة بسبابته المفرودة على طرف القبعة باتجاههم: تحية الزمالة.

عدا ذلك لم يكن هناك شيء يقوم به.. فكان يقف أكثر الوقت في مكانه أمام البنك، ساكناً، كأنه ينتظر شيئاً.. وفي بعض الأحيان كان يشغل نفسه بتأمل قدميه، أو تأمل الرصيف، أو ينظر إلى الطرف المقابل من الشارع، هناك حيث المقهى.. أو ينزل من على العتبة الرخامية، ويطوف على أول درجة من درجات سلم المدخل الثلاث، جيئة وذهاباً: سبع خطوات إلى اليمين، ومثلها إلى اليسار وفي أحيان أخرى حين تكون الشمس ساطعة ولاهبة، وتتسبب في انزلاق العرق من فوق جبهته، كان يستقر تحت مظلة البنك، ثم يرفع قبعته عن رأسه، ويشرع في مسح جبهته من العرق، بمنديل أبيض نظيف، يخرجه من جيب بنطلونه، ثم يرده إليه مرة أخرى.. بعدها يبقى هناك يتأمل وينتظر!

أجـرى في ذهنـه ذات مـرة، وهـو واقـف أمـام مـدخل البنك، عملية حسابية، استنتج منها أنه حتى يوم تقاعده وإحالتـه علـى المعـاش، سـيكون قـد أمضـى خمسـاً وسـبعين ألـف سـاعة واقفـاً علـى تلـك العتبـة الرخاميـة.. وبهذا سيكون حتماً، الإنسان الوحيد في باريس، وربما في فرنسا كلها، الذي أمضى كل هـذا الوقت، واقفاً في المكان ذاته. بل ربما كان الآن، بعد انقضاء الساعة الخامسـة والخمسـين ألـف، مـن وقوفـه علـى تلـك العتبـة الرخامية، صاحب الرقم القياسي، إذ كان يوجد عـدد قليل من الحرّاس الموظفين بشكل دائم في بنوك المدينـة. حيـث أن أكثـر تلـك البنـوك، قـد أصـبحت تعهـد بتلـك الوظيفة إلى شـركات خاصـة، تسـمى نفسـها شـركات حراسة الأملاك. وهذه الشركات تستخدم لهذا الغـرض شـباناً صـغاراً، يقفـون أمـام الأبـواب بسـيقانهم المنفرجـة ونظـراتهم الضـجرة، ويسـتبدلون كـل عـدة شـهور، وأحياناً كل عدة أسابيع بشبان آخرين. وهذا الاستبدال يـتم ـ كمـا يقولـون ـ لأسـباب نفسـية بحتـة. فانتبـاه

الحارس، كما يدّعون، يخف مع مرور الزمن، حين يقضي فترة طويلة، واقفاً في المكان ذاته. كما تقل قدرته على الملاحظة الدقيقة لما يدور حوله، فيصبح كسولاً ثقيل الحركة، مهملاً، لا يصلح للمهمة الملقاة على عاتقه.

كل هذا مجرد هراء أخرق!.. فجوناثان يعرف جيداً، أن انتباه الحارس، يتلاشى ويزول خلال ساعات فقط، وليس خلال شهور!

فقدرته على ملاحظة ما يحيط به، ملاحظة دقيقة، ومعرفة مئات الزبائن الذين يدخلون البنك ويخرجون منه كل يوم، كانت قد بدأت بالانحسار منذ اليوم الأول لعمله، فأصبح غير قادر على التركيز أو التمييز...وهذا ليس بذي أهمية كبيرة من وجهة نظره، فالمرء، وبالرغم من كل شيء، لايملك القدرة على التمييز بين زبون ولص من لصوص البنوك!.. وحتى لو تمكن الحارس من التمييز بينهما، واستطاع اعتراض اللص،

فإنــه، وفي لمــح البصـــر، يصـــبح في عــداد الأمــوات... برصاصة!..

هكذا بكل بساطة!.. يموت قبل أن يتمكن من انتــزاع مسدســه مــن جرابــه الجلــدي المعلّــق في جنبــه. فالمجرم يمتلك ميزة لا يمكن تجاهلها في أية مواجهة معه وهي المفاجأة.

تماماً مثل أبي الهول.. نعم.. الحارس يشبه أبي الهول.. وهذا ما يراه جوناثان الذي قرأ ذات مرة عن أبي الهول في إحدى الكتب التي يقتنيها، أن فاعلية أبي الهول أو قوته لا تأتي من حركته، وإنما تأتي من مجرد ثباته ووجــوده في المكــان فبمجــرد وجــوده فقــط يســتطيع مواجهة اللص.

يقــول أبــو الهــول للــص الآثــار: لا أســتطيع منعــك.. لكنك يجب أن تتخطاني، وحين تتجرأ وتفعل ذلك، فــإن غضـــب الآلهـــة ولعنـــة آل فرعـــون ســـيحلاّن بـــك ويدمرانك إن آجلاً أو عاجلاً!

أما الحارس فإنه يقول: إن عليك أن تتخطاني، لكي تستطيع أن تسرق البنك، أنا لا أستطيع منعك.. ولكن حين تتجرأ على ذلك، وتقتلني.. فإن انتقام العدالة سيحل بك، وستدان بجريمة القتل!

إن جوناثان يعلم بكل تأكيد، أن أبا الهول يملك أسلحة أكثر تأثيراً وأفضل مما يملكه الحارس. فالحارس لا يمكنه أن يهدد اللص بغضب الآلهة أو لعنة الفراعنة. وحتى إذا كان اللص لا يأبه للعواقب، فإن أبا الهول لن يتأذّى جسدياً في هذه الحالة، فهو منحوت من صخر قوي، ويقبع في مكانه كحصن منيع، وتمكن من المحافظة على بقائه في ذلك المكان مقاوماً لصوص الآثار، أكثر من خمسة آلاف سنة!.. بينما حارس البنك، عند حدوث سطو مسلح على البنك، يضطر لأن يدع حياته خلفه، ويغادر الدنيا، ويصعد إلى السماء، خلال أقل من خمس ثوان!.

على الرغم من هذا، كان جوناثان على يقين بأن هناك شبهاً كبيراً بين حارس البنك وأبي الهول. فسلطة

كلٍ منهما ليست أداتية ـ مستمدة من أداة يملكها ـ بل هي سلطة رمزية.

وفقط بإدراكه امتلاك هذه السلطة الرمزية، التي كانت تشكل اعتزازه بنفسه، واحترامه لذاته، وتمده بالقوة والقدرة على التحمل، وتحميه، وتحصّنه، أفضل من أي انتباه أو مسدس أو زجاج مسلح.. كان يقف على العتبة الرخامية أمام مدخل البنك، ليحرسه دون أدنى خوف، أوشك بقدراته، ودون أدنى شعور بالتذمر أو الضجر حتى اليوم!

لكن اليوم بالذات.. يبدو كل شيء مختلفاً.. ولن يتمكن مهما حاول؛ أن يتحلى بهدوء أبي الهول، الذي كان يتمتع به في العادة.

فها هو بعد دقائق قليلة، يشعر بتثاقل في جسده، نتج عنه ألم في كعبي قدميه.. فأخذ ينقل نقطة ارتكاز جسده من قدم إلى أخرى، بضع مرات، مما أدى إلى شعوره بدوار خفيف. فأخذ يخطو خطوات صغيرة، تارة إلى اليمين، وتارة إلى اليسار، في محاولة

منه لاستعادة توازنه: ذلك التوازن النموذجي الذي كان يتحلى به، ويمكّنه دائماً من الوقوف مستقيماً كالألف!

وفجأة بدأ يشعر بأكلان في أسفل ظهره وجانبي صدره ورقبته، ثم انتقل الأكلان إلى جبهته، وشعر بها كما لو كانت صلبةوجافة كحالها في الشتاء، على الرغم من حرارة الجو الشديدة، التي يفترض أن تجعله يتصبب عرقاً. بعد ذلك انتقل الأكلان إلى ذراعيه وساقية، ثم انتشر في كل أنحاء جسمه. وتولّدت لديه رغبة ملحة في أن يحك جسمه بقوة.. لكن ذلك غير لائق بأي حال من الأحوال.. فكيف يقوم حارس بنك بحك جسمه هكذا علناً، أمام الناس، وبدون حياء؟!..

فأخذ نفساً عميقاً، ملأ به صدره، وثنى ظهره، ومال بجسده إلى الأمام، ثم فرده ورفع كتفيه لأعلى، ثم خفضهما، محاولاً بذلك، وعن طريق احتكاك ثيابه بجسده، أن يخفف من شدة ذلك الأكلان. إلا أن هذه التقلصات والتمددات، لم تسهم إلا في زيادة الدوار

الذي كان يشعر به. ولم تعد تلك الخطوات الصغيرة، إلى اليمين وإلى اليسار، مجدية في الحفاظ على توازنه وهدوئه. فوجد نفسه مضطراً إلى التخلي عن وقفته المنتصبة، والتي عادة ما كانت تسبق وصول سيارة مسيو رودلز، حوالي الساعة التاسعة والنصف، والعودة إلى الطواف مرة أخرى: سبع خطوات إلى اليمين.. ثم سبع خطوات إلى اليسار، محاولاً خلال ذلك تثبيت نظره على الحافة الخارجية لأول درجة من درجات سلم المدخل الرخامية الثلاث.. وكأنه عربة صغيرة مثبتة فوق قضبان حديدية، تحدد سكتها.

راح وجاء كثيراً، محاولاً من خلال رتابة تكرار انعكاس صورة حافة الدرجة الرخامية داخل دماغه، إستعادة طمأنينة أبي الهول التي افتقدها، والتي كان يرجو أن تساعده على نسيان شعوره بتثاقل جسده، ونسيان رغبته في حك جلده،وقبل كل شيء تعالجه من تلك الفوضى الغريبة التي دبّت في روحه وفي جسده.

لكــن هــذه المحاولــة لم تجــد أي نفــع.. إذ كانــت العربة كثيراً ما تخرج عن سكتها المحددة. ومع كل طرفــة عــين راح نظــره ينحــرف عــن حافــة الدرجــة الرخامية، ويقفز إلى شيء آخر: قطعة ورق ممزقة من جريدة على الرصيف، أو قدم محشورة في حذاء أزرق، أو مؤخرة امرأة، أو سلة مشتريات يطل منها رغيف خبز طويل، أو مقبض الباب الزجاجي المسلح الخارجي، أو لافتة محل بيع السجائر بجوار المقهى على الرصيف المقابل، أو دراجة بخارية منطلقة بسرعة، أو قبعة عريضة من القش، أو وجه، أو... ولم يتمكن من تثبت نظره في أي مكان، أو تحديد نقطة جديدة يبدأ منها، وتكون عوناً له في محاولة استعادة توازنه المفقود.

وما كاد يركز نظره على قبعة القش العريضة، حتى قطع تركيزه سيارة نقل كبيرة تتجه يساراً، فاتجه بنظره معها، ثم تركها بعد أن عبرته بأمتار قليلة، وتحول إلى سيارة بيضاء صغيرة بدون سقف وبمقعدين فقط، كانت تتجه يميناً... ناحية قبعة القش

العريضة التي كان يركز نظره عليها في البداية.. إلا أن القبعة كانت قد اختفت! وفي زحمة القبعات على رؤوس الناس، راح يبحث بعينيه عنها ، لكن دون جدوى، فتوقفت عيناه عند زهرة تهتز على قبعة أخرى، ثم تركتها لترجع مرة أخرى إلى حافة الدرجة الرخامية، حيث لم تتمكن من الثبات عليها ، وشردت دون هدف محدد إلى نقطة أخرى، وحافة أخرى.

كان الجو شديد الحرارة، بشكل ليس معتاداً في ذلك الوقت من السنة، وبدت الأشياء مغلفة بوشاح شفاف يهتز. فبدت معالم البنايات وخطوط أسطحها وقممها ، كما لو كانت مهترئة ومتصدعة. كما بدت حواف أحجار الرصيف، وفواصل بلاطه، التي كانت في الأحوال العادية شديدة الاستقامة والثبات، متلألئة ومتعرجة. أما النساء اللاتي كن يسرن في الطريق، فبدون لجوناثان كما لو كن يرتدين ثياباً براقة واحدة، وكأنهن اتفقن على ذلك سلفاً ، فظهرن كقطع من نار متوهجة متحركة، تجبر النظر على

التوجه نحوها، وفي نفس الوقت لا تسمح له بالاستقرار عليها... لم يعد هناك أي شيء له خطوط واضحة محددة، كما لم يعد هناك مكان يمكن تثبيت النظر عليه.. كل شيء أصبح مشوشاً.. يتموّج ويتراقص! قال لنفسه: "إنهما عيناي!.. لابد أنني أصبت بقصر النظر دون أن أشعر وأحتاج إلى نظارة".

حين كان طفلاً كان يضع على عينيه نظارة طبية لعلاج قصر النظر.. لكنه استغرب أن يعاوده قصر النظر، وهو في هذه السن المتقدمة، فمع تقدم السن - كما يعرف جيداً من قراءاته - يعاني المرء من طول النظر، وليس قصره.

ربما كان ما يعاني منه لا يندرج تحت التعريف التقليدي لقصر النظر، وبالتالي لا تساعده النظارة الطبية في التخلص منه.. وربما كان "مية بيضا"، أو انفصال في الشبكية، أو سرطان في العين ذاتها، أو ربما سرطان في الدماغ يضغط على عصب الرؤية.

كان مستغرقاً في تلك الأفكار السوداء، إلى الحد الذي حال دون نفاذ صوت آلة التنبيه المتكرر إلى وعيه.. وفقط بعد المرة الرابعة أو الخامسة، التي تطاول فيها الصوت أكثر، سمع. ورفع رأسه ، ليرى سيارة مسيو رودلز السوداء عند البوابة!.. كما رأى مسيو رودلز، وهو يضغط على زر آلة التنبيه بإحدى يديه، ويلوح باليد الأخرى، كما لو أنه ينتظر منذ دقائق عند البوابة.

سيارة مسيو رودلز!.. تنتظر عند البوابة!!

لم يسبق له أبداً أن غفل عنها وهي تقترب من بوابة البنك.. بل إنه لم يكن - في العادة - بحاجة إلى أن يراها وهي تقترب.. كان يشعر بقدومها.. ويدرك أنها تقترب: من صوت محركها فقط. كان بإمكانه دائماً النوم والاستيقاظ - كما يفعل الكلب - دون أن يفوته اقتراب السيارة من بوابة البنك!

انتفض، وأسرع باتجاه البوابة، حتى كاد أن يفقد توازنه، ويقع على الأرض، فتح البوابة، وهو يؤدي التحية، ثم تنحّى ليدع السيارة تمر.

كان يشعر بقلبه يخفق بعنف، وبيده المبسوطة على مقدمة قبعته، ترتجف بشدة وحين أغلق البوابة الخلفية، ورجع إلى بوابة البنك الرئيسية، كان غارقاً في عرقه.

تمتم بصوت مرتجف: "لقد غفلت عن وصول سيارة مسيو رودلز!". كان يؤنب نفسه، لذلك كرر القول: "لقد غفلت عن سيارة مسيو رودلز.. ألم ترها؟!

.. لقد أخفقت وأهملت في واجباتك الوظيفية بشكل مخزٍ.. إنك لست أعمى فقط.. بل أنت أصم أيضاً.. أخرق وعجوز.. ولا تصلح بعد الآن أن تكون حارساً لبنك".

كان يشعر بالإحباط، وهو واقف على العتبة الرخامية، محاولاً اتخاذ وضعية الحراسة المعتادة. لكنه لم يعد قادراً على الانتصاب في وقفته بالشكل المعتاد، وتدلى ذراعاه على جانبيه بشكل يبدو فيه الإرهاق.

كان يدرك أن مظهره في هذه اللحظة يبدو مثيراً للسخرية ولم يكن يدري كيف يتمكن من تحسينه.

بقنوط صامت، أخذ يجول بنظره بين الرصيف والشارع والمقهى المقابل للبنك على الناحية الأخرى من الشارع.

وتدريجياً زالت الغشاوة عن عينيه، وأخذت الأشكال التي يراها، تسترجع ملامحها المعتادة، كما أخذت الخطوط تستعيد استقامتها، وعاد الكون إلى وضوحه، وبات يستطيع سماع الضجيج من حوله: أصوات فتح وغلق أبواب السيارات، وأصوات جرسونات المقهى المقابل، وأصوات كعوب أحذية النساء وهي تدق على بلاط الرصيف.

لم يعد يعاني من أي ضعف في قدرته على الرؤية أو السمع إلا أن العرق كان مايزال يتصبب بغزارة من جبهته، وكان ما يزال يشعر بضعف عام في كل جسده.

تراجع إلى الخلف بظهره، إلى حيث كانت توجد دعامة إلى جانب البوابة الزجاجية المسلحة الخارجية، وشبّك يديه خلف ظهره بحيث تلامسان تلك الدعامة،

واستند عليها برفق... إنه يفعل هذا لأول مرة منذ ثلاثين عاماً ـ مدة خدمته بالبنك.

أغلق عينيه لبضع ثوان، وهو يستشعر عاراً كبيراً بداخله.

في استراحة الغداء، جلب حقيبته والبالطو من غرفة خلع الملابس، ثم توجه إلى شارع (سانت بلاسيد) القريب من البنك.. حيث يوجد به فندق صغير يعرفه، معظم نزلائه من الطلبة والعمال الأجانب وطلب من موظف الاستقبال بالفندق استئجار أرخص غرفة به، فعرض عليه الموظف غرفة بأجر يومي قدره خمسة وخمسون فرنكاً، فقبلها بدون أي تردد، ودفع أجرها مقدماً. ثم ترك الحقيبة والبالطو لدى موظف الاستقبال ، وخرج. ومن أحد الأكشاك بالشارع، اشترى فطيرتين بالزبيب وعلبة لبن، ثم اتجه إلى ساحة (بوسيكو) حيث يوجد هناك حديقة صغيرة، بالقرب من سوبر ماركت (بون مارشيه).

دخل الحديقة، وجلس على أحد المقاعد في الظل، وشرع في تناول غدائه.

بعد المقعد الذي جلس عليه بمقعدين آخرين، كان هناك أحد المتشردين يجلس مقرفصاً فوق المقعد، واضعاً زجاجة نبيذ بين فخذيه، وممسكاً بقطعة خبز في يده، وإلى جانبه فوق المقعد كانت هناك علبة سردين. كان يتناول سردينة بعد أخرى من العلبة: يمسك بها من ذيلها، ويرفعها إلى فمه، ثم يقضم رأسها بأسنانه، ويلفظها على الأرض، ثم يلتهم ما بقي منها دفعة واحدة. بعدها يقضم قطعة خبز، ثم يأخذ جرعة من النبيذ، ويطلق أخيراً تنهيدة رضى وانسجام.

كان جوناثان يعرف هذا المتشرد. إذ كان عادة ما يراه في الشتاء جالساً عند مدخل أحد المتاجر، فوق الشبكة الحديدية التي تغطي قبو أجهزة التكييف المركزية. أما في الصيف، فكان يراه أمام المحلات التجارية بشارع (دوسيفر)، أو أمام بوابة منظمة رعاية شؤون الأجانب، أو عند مكتب البريد.

كان هذا المتشرد يعيش منذ سنوات طويلة في تلك المنطقة.. تماماً مثل جوناثان.

ولقد تذكر جوناثان أنه كان قد رآه لأول مرة منذ ثلاثين عاماً تقريباً.. ووقتها تملكه شعور غاضب من الغيرة: الغيرة من الحياة الخالية من الهموم التي يحياها. إذ بينما كان عليه هو الذهاب إلى عمله بالبنك كل يوم في تمام الساعة الثامنة والنصف، كان هذا المتشرد لا يظهر بالشارع قبل الساعة العاشرة والنصف أو الحادية عشرة.. وبينما كان عليه أن يقف منتصباً أمام البنك، بذراعين مشدودين إلى جانبه، كان هو يجلس مسترخياً على الأرض، واضعاً تحته قطعة من الكرتون، مشعلاً سيجارة ينفث دخانها من منخريه باستمتاع. وبينما كان جوناثان يقضي الساعة بعد الساعة، واليوم بعد اليوم، مخاطراً بحياته، وهو يحرس البنك، ويكسب قوته بمرارة من هذا العمل، كان هذا المتشرد لا يفعل شيئاً على الإطلاق، معتمداً على شفقة

وعطـف الآخـرين، الـذين يلقـون إليـه بـالنقود وهـم سـائرون!..

لم يره جوناثان يوماً متعكـر المزاج.. حتى في الأيام التي لا يرزق فيها بنقود، لم يكن يبدو عليه أنه يعاني أو يخشى شيئاً أو يملّ من حياته.. دائماً كان يبدو واثقاً من نفسه.. راضياً بشكل مثير للغيظ. لقد كان يمثل تجسيداً استفزازياً لجاذبية الحرية وسحرها!

ذات مرة، في خريف منتصف الستينات، وبينما كان قاصداً مكتب البريد بشارع (دوبان)، كاد جوناثان أن يقع عند مدخل المكتب، بعد أن تعثر بزجاجة خمر موضوعة على الأرض فوق قطعة ورق كرتون، بين كيس من البلاستيك، وقبعة مقلوبة تحتوي على بضعة قطع من النقود المعدنية.

وقتها توقف جوناثان، وراح يبحث بعينيه، دونما إرادة منه، عن المتشرد ليس لأنه كان يفتقده، وإنما لأن مشهد الطبيعة الصامتة الذي رآه، والمكون من زجاجة الخمر والكيس البلاستيك والقبعة المقلوبة، بدا

له ناقصاً.. وفجأة، وقعت عيناه عليه بالجانب الآخر من الشارع: كان مقرفصاً بين سيارتين واقفتين إلى جانب الرصيف يقضي حاجته!.. كان متكوّراً على نفسه قرب فتحة للمجاري العامة، منزلاً بنطولنه عن مؤخرته، وممسكاً به بين ركبتيه. كان مديراً ظهره للشارع، وكان الناس يعبرون أمامه، وبإمكانهم رؤيتها: مؤخرة بيضاء مرقشة ببقع زرقاء وخدوش حمراء.. كانت مشوّهة بشكل تبدو معه كما لو كانت مؤخرة كهل مريض عاجز عن الحركة، طال رقاده على الفراش، على الرغم من أنه كان قريباً في العمر من جوناثان.. ربما كان حينئذ في الثلاثين أو الخامسة والثلاثين على أكثر تقدير.

ومن هذه المؤخرة المشوهة، اندفعت حزمة بنية سائلة لزجة بقوة هائلة، لتصطدم بالأرض بعنف، ولترتد منها شظايا، لوّثت جواربه وفخذيه وبنطلونه وقميصه، وكل شيء وكوّنت حوله بقعة، بل بحيرة صغيرة غطت حذاءه أيضاً!

كان هذا المشهد مقززاً ومرعباً في نفس الوقت، بشكل يجعل جوناثان - حتى اليوم - يرتعش كلما تذكره.

في ذلك اليوم، وبعد أن أفزعه هذا المشهد لبرهة، هرب جوناثان، ودخل مكتب البريد، ليتوه وسط زحام الناس به. قام بتسديد فاتورة الكهرباء، ثم اشترى طوابع بريد - لم يكن بحاجة إليها.. اشتراها فقط ليطيل فترة بقائه بداخل المكتب، بحيث يخرج منه وهو متأكد بأنه لن يرى المتشرد أو تقع عينه عليه، وهو مازال يقضي حاجته.

أخيراً خرج من مكتب البريد مقطباً جبينه وخافضاً بصره، مجبراً نفسه على عدم النظر إلى الجهة الأخرى من الشارع، ثم اندفع إلى اليسار نحو شارع (دوبان)، ثم إلى اليسار مرة أخرى، على الرغم من أنه ليس لديه ما يفعله في تلك البقعة من المدينة، لكنه أراد بذلك أن يتجنب المرور بالمكان الذي توجد فيه زجاجة الخمر وقطعة الورق الكرتون المفروشة على الأرض والقبعة

فقطع مسافة طويلة عبر شارع (شيرش ميدي) وشارع (بوليفار راسباي)، حتى وصل إلى شارع (دولا بلانش) قاصداً غرفته: محارته الآمنة.

منذ ذلك اليوم، اختفت من داخل جوناثان تلك الغيرة التي كان يشعر بها أحياناً تجاه ذلك المتشرد.

كان من حين إلى آخر يطرح على نفسه سؤالاً بشيء من الشك عن جدوى قضائه الثلث الأخير من حياته أمام باب البنك، والانحناء وتقديم الاحترام الواجب للمدير عندما يقترب بسيارته من باب البنك، مع بقاء كل شيء على ما هو عليه: إجازات قليلة.. قصيرة، وراتب ضئيل يتبخر كله تقريباً بعد دفع الضرائب والتأمينات والإيجار، وما إلى ذلك.. هل هناك جدوى فعلية من كل ذلك؟!

وجاءه الجواب على هذا السؤال، في ذلك اليوم الذي رأى فيه تلك الصورة المرعبة في شارع "دوبان": نعم.. إن ما يقوم به له جدوى فعلاً.. بل إنه ضروري للغاية، فهو يحميه من الاضطرار إلى تعرية نفسه وكشف مؤخرته

على الملأ.. والتبرز في عرض الطريق!.. هل يوجد شيء أكثر إيلاماً وأذى للنفس من الاضطرار للتعري والتبرز أمام أعين الناس؟..

هل يوجد شيء أكثر إذلالاً من بنطلون (مسلوت)؟.. من هذا الوضع المتكور، وهذا العُري الاضطراري البشع؟.. هل هناك عجز وهوان أكثر من اضطرار الإنسان لقضاء حاجة محرجة أمام أعين العالم أجمع؟!.. "حاجة"!.. إن اسمها وحده يفصح عن المعاناة! وككل ما قد يضطر المرء للقيام به تحت ظروف قاهرة، فإنها تتطلب لقضائها بشكل يمكن تحمّله، الغياب التام والمطلق لأي إنسان آخر.. أو على الأقل التظاهر بأن ذلك حادث!. وذلك لا يتوفر - إذا كان الإنسان في الريف - مثلاً - إلا في حقل فسيح أو دغل أشجار كثيف، تتشابك فيه أغصان تلك الأشجار. وإن لم يكن هذا ولا ذاك فعلى الأقل أرض فضاء واسعة لا تقل مساحتها عن كيلومتر مربع. أما إذا كان الإنسان في المدينة، المكتظة بساكنيها، والتي تخلو في معظم الأحوال من

أرض فضاء واسعة، أو بقعة مظلمة.. وحيث لا تشكل أطلال المباني أوالخرائب أي ساتر حقيقي ضد النظرات المتطفِّلة.. فلا ينفع المرء إلا الابتعاد عن الناس.. لا ينفع إلا حجرة مزوّدة بقفل وترباس!! ومن لا يملك شيئاً كهذا الملجأ عند الحاجة، يكون أتعس الناس وأكثرهم استحقاقاً للرثاء والأسى، سواء أكان حراً في اختيار ذلك أم لم يكن.

بقليل من المال كان جوناثان قادراً على تدبّر أمره. وكان يتصور أن بإمكانه أن يرتدي قميصاً متسخاً، أو بنطلوناً ممزقاً إذا ما دعته الضرورة.

وحين كان يستغرق في خيالاته الرومانسية، كان النوم على قطعة كرتون بإحدى زوايا الشارع أو على عتبة إحدى محطات المترو، والاستعاضة عن دفء وحميمية الغرفة التي يعيش بها، بالهواء الدافئ المنبعث من الشبكة المعدنية التي تغطي جهاز التدفئة المركزية في مدخل أحد المحلات الكبيرة، أمراً ممكناً ومقبولاً.

ولكن غير الممكن والذي لا يمكن قبوله، في تصوره، أن لا يجد المرء في مدينة كبيرة باباً يستطيع أن يغلقه خلفه، حين يريد أن يقضي حاجته.. حتى ولو كان باب مرحاض مشترك.

وكان على قناعة بأنه حين يتم تجريد المرء من هذه الإمكانية.. أو الحرية الأساسية: حرية الانسحاب والاحتجاب عن الناس عند الضرورة.. فإن كل الحريات الأخرى تصبح بلا فائدة أو عديمة القيمة. وآنئذٍ تفقد الحياة معناها، ويكون الموت أفضل!

حين أدرك جوناثان بأن جوهر الحرية الإنسانية مرهون بامتلاك مرحاض حتى ولو كان مشتركاً ـ وأنه يتمتع بذلك. تملكه شعور عميق بالرضا.

نعم.. لقد كان مصيباً وموفقاً في الكيفية التي أمَّن بها وجوده.. فقد كان يعيش حياة رغيدة.. إذا ما قارن نفسه بذلك المتشرد! وليس هناك شيء.. أي شيء، يدعوه للندم أو حسد الآخرين.

منذ أن أدرك ذلك، وهو يقف على أرض صلبة أمام باب البنك، منتصباً وشامخاً كتمثال منحوت من الصخر، أومصبوب من المعدن الصلب الذي لا يصدأ.وتلك الثقة التي لا تتزعزع بالنفس، والقناعة، التي كان يتصور أن المتشرد يتمتع بها ، تدفقت داخله هو، كالمعدن المنصهر، وتصلَّبت لتصبح درعاً له، وحصنا يدعم رسوخه وثباته.

منذ ذلك الوقت لم يعد هناك شيء يمكن أن يهزه، أو يفقده اليقين: لقد كساه ثوب الهدوء والطمأنينة الذي يكتسي به أبو الهول!

وحين كان يصادف ذلك المتشرد، أو يراه جالساً في مكان ما، كان ينتابه شعور يمكن تسميته بشكل سطحي، بالتسامح أو قبول الآخر!

كان شعوره هذا مزيجاً شديد التنافر من القرف والاحتقار والشفقة ولم يعد هذا المخلوق يثيره، أو يشغله بأي شكل، إلى أن رآه مرة أخرى اليوم، عندما ذهب

إلى الحديقة العامة في ساحة "بوسيكو"، ليتناول فطائر الزبيب واللبن.

عادة ما كان يذهب إلى غرفته من ذلك الوقت: وقت استراحة الغداء، حيث كانت الغرفة تقع على بعد خمس دقائق فقط من مقر عمله بالبنك،

ليعد لنفسه وجبة ساخنة من البيض المقلي، المخفوق أو غير المخفوق، مع اللحم البارد، أو المكرونة مع الجبن الرومي المبشور. أو يتناول حساء متبقياً من اليوم الفائت، مع سلطة وفنجاناً من القهوة.

كان قد مضى وقت طويل جداً، منذ جلس آخر مرة في تلك الحديقة، ليأكل تلك الفطائر ويشرب اللبن إذ أنه في الحقيقة لا يفضّل المأكولات الحلوة أو اللبن. إلا أنه كان قد دفع اليوم خمسة وخمسين فرنكاً، إيجار الغرفة التي حجزها بالفندق، وكان يعتبر الذهاب إلى المقهى وشراء طبق من البيض المقلي المخفوق، مع السلطة والبيرة، نوعاً من التبذير في غير محله.

أجهز المتشرد الذي كان يجلس متربعاً على المقعد، على السردين والخبز الذي كان يتناوله، ثم ختم وجبته بالجبن والكمثرى وبعض البسكويت، ثم تجرّع جرعة كبيرة من النبيذ، وأخيراً أطلق تنهيدة طويلة تعبيراً عن الرضا.

خلع قميصه الذي يرتديه، وكوّره صانعاً منه وسادة، أراح رأسه عليها، ومدّد جسده الكسول الشبعان على المقعد، وهو يتمطّى، ثم راح في قيلولة ما بعد الغداء.

وحالما استغرق في النوم، حطّت بالقرب منه مجموعة من الطيور الصغيرة، وبدأت تتلقف بقايا الخبز المتناثر حوله. ثم لحقت بها عدة حمامات، رفرفت بأجنحتها، ثم حطت على الأرض، وراحت تمزق بمناقيرها السوداء رؤوس السردين، وتلتقط منها ما بقي بها من لحم طري.

راح جوناثان يتأمله وهو مستغرق في نومه، غير مبالٍ بما يجري حوله، وبينما كان يفعل ذلك، اعتراه شعور غريب بالانزعاج. لم يكن مصدر ذلك الانزعاج،

الحسـد أو الغـيرة ـ كمـا في السـابق، بـل الدهشـة: إذ كيف يمكن لهذا المرء الذي تجاوز الخمسين من عمره أن يبقـى علـى قيـد الحيـاة حتـى الآن؟!.. بطريقـة حياتـه المستهترة هذه، يجب أن يكـون قـد مـات مـن الجـوع، أو تجمد مـن البـرد منـذ زمـن طويـل!.. لكنـه بـدلاً مـن كـل هـذا، كـان يأكـل ويشـرب بشـهية تامـة ومـزاج رائـق، وينام نوماً هادئاً، ويبدو ببنطلونه الملـيء بـالبقع، والمرقّـع هنا وهناك، وبسترته الصوفية، مثل شخص أنيق، متزن تمامـاً، يسـتمتع بحياتـه، ويعـيش بانسـجام كامـل مـع العـالم مـن حولـه، بينمـا هـو ـ جونـاثـان ـ وبـدأت دهشـته المتزايدة تتحول إلى نوع من التوتر العصبي والاضطراب ـ قد قضـى حياتـه نزيهـاً، منتظمـاً، قـانعـاً، متقشـفاً بعـض الشـيء، نظيفـاً، مطيعـاً في سـلوكه، أمينـاً، مؤدبـاً، وكل فرنك يملكه كسبه من عرق جبينه، يدفع كل التزاماتـه نقـداً: فـواتير الكهربـاء.. إيجـار الغرفـة.. إكراميـة حارسـة العمـارة في أعيـاد المـيلاد والمناسـبات المختلفة. لم يستدن مـن أحـد في حياتـه، ولم يكـن عالـة

يوماً على أحد، لم يمرض حتى يوماً واحداً، ولم يكلف صندوق الضمان الاجتماعي فرنكاً واحداً، ولم يتسبب في إيذاء أحد يوماً من الأيام، ولا كانت له أمنية في حياته أكثر من أن يتمكن من تدعيم وصيانة أمن وسلام روحه المتواضعة... ثم.. وبينما هو كل ذلك، يجد نفسه فجأة - بعد ثلاثة وخمسين عاماً - غارقاً في خضم أزمة تكاد تعصف بكل مخطط حياته الذي اجتهد في رسمه، والحفاظ عليه، وتحوِّله إلى معتوه ضائع، مُجبر على اجترار فطائر الزبيب في الحديقة العامة، نتيجة اضطرابه وخوفه!

نعم.. إنه خائف!.. ويعلم اللّه أنه يرتجف من الخوف من مجرد النظر إلى هذا المتشرد الغارق في حلمه!

لقد تملكه وسيطر عليه فجأة شعور ضخم بالخوف، من أن تجعله الظروف يوماً، شبيهاً بهذا المتشرد المنحطّ الذي يتمدد بكل اطمئنان على مقعد الحديقة. ما هي السرعة التي يحتاجها شيء كهذا ليحدث؟!.. كم من الوقت يمكن أن يمر على تلك

الـدعائم الـتي تبـدو صـلبة ومتينـة في حيـاة شـخص مـا لتتفتت وتهوي، وتأخذه إلى الحضيض؟!.

وعـاد إلى حـواره مـع نفسـه: "لقـد غفلـت عـن اقـتراب سـيارة مسـيو رودلـز.. مـا لـم يسـبق لـه أن حـدث، ومـا لا يجب أن يحدث أبداً.. حدث اليوم بالـذات.. كيـف غفلـت عنها؟.. ومـاذا بعـد؟!.. ربمـا تغفـل غـداً عـن ميعـاد ذهابـك إلى البنـك، أو تضـيّع مفتـاح البوابـة الحديديـة الخلفيـة لتطـرد الشـهر القـادم مـن عملـك، مـع خطـاب تأنيـب!.. وعنـدها لـن تـتمكن مـن العمـل في مكـان آخـر: فمـن الذي يخاطر بتوظيف رجل فاشل في عمله؟..

وتعـويض البطالـة وحـده لـن يكفيـك لكـي تعـيش حياة كـريمـة.. وحتـى ذلـك الوقـت، سـتكون قـد فقـدت غرفتك التي ستسـكنها حمامة.. بل عائلـة مـن الحمـام!.. تملؤها بالبراز وتجعل أعلاها أسفلها.. وستتراكم عليـك أجرة الفندق، وتصـل إلى مبلـغ خيـالي.. فتلجـأ إلى شـرب الخمر، لتهرب من همومك، وتنسى.. فتشرب.. وتشرب.. وتبدد كل مدخراتك على الخمر، وتغرق فيـه، وتصـبح

مـدمناً.. فتمـرض، وتـنحطّ، ويمـلأ جسـمك القمـل، فيسخر منك النـاس.. وتُطـرد مـن أي مـأوى رخيص يُتـاح لك، بعد أن تصبح مفلسـاً، فتنطلق في الشـوارع وتجـوب الطرقات: تنام وتسكن وتتبرز...

ستؤول إلى الحضيض يا جوناثان.. قبل انقضـاء عـام واحـد سـتكون في الحضـيض.. تتجـول بثيابـك المتسـخة والممزقة، وتنام على مقعد في الحديقة.. تماماً مثل أخيك المنحطّ هذا!.

أحـس جوناثـان بجفـاف حلقـه، فأشـاح بنظـره عـن الرجل المتشـرد.. العبرة، الـذي كـان مسـتغرقاً في النـوم. وغـصّ باللقمـة الأخـيرة مـن فطـيرة الزبيـب، قبـل أن يتمكن من ابتلاعها. استغرقت اللقمـة وقتـاً طـويلاً - بـدا كالـدهر - حتـى وصلت إلى جوفـه. انحـدرت في بلعومـه ببطء شديد، وبدت مرة، وكما لو كانت قد انحشرت في القناة الهضمية، راحـت تضـغط وتـؤلم وكـأنهـا ظفـر يحفر في الصدر، واعتقـد للحظـة أنهـا سـوف تتسـبب لـه في الاختنـاق.. لكنهـا عـادت وتحركـت قلـيلاً حتـى

انزلقت أخيراً إلى الأسفل، فتلاشى الضغط والألم، وتنفس الصعداء.

كان يريد مغادرة المكان.. ولم يرغب في البقاء به وقتاً أطول، على الرغم من أن نصف ساعة كاملة كانت ما تزال باقية من فترة استراحة الغداء.

قام بلملمة فتات الفطيرة الذي تساقط على بنطلونه، رغم كل حرصه واحتياطه لمنع حدوث ذلك. أصلح من وضع ملابسه التي يرتديها، ثم نهض مغادراً المكان، وهو أحرص ما يكون على ألا يقع بصره على المتشرد.

كان قد بلغ شارع "دوسيفر" عندما تذكر أنه قد نسي علبة الحليب الفارغة، على مقعد الحديقة الذي كان يجلس عليه، مما سبب له كثيراً من الضيق، فهو يكره عادات الناس التي تعوّدوها حين يتركون مخلفاتهم وراءهم على مقاعد الحديقة، أو يلقونها في عرض الشارع بكل إهمال، ولا يضعونها في صناديق القمامة. وهو لم يسبق له أبداً أن ترك مخلفاته وراءه

علـى مقعـد بالحديقـة، أو رمـى بـأي شـيء في الطريـق. لـذلك لم يكـن يريـد أن يحـدث منـه ذلـك الفعل اليـوم.. واليوم بالذات. ذلك اليوم المشؤوم الـذي حـدث لـه خلالـه مـا يكفـي مـن المصـائب، الـتي أفقدتـه صـوابه، وجعلتـه يتصرف كشخص مخبول لا يلام على تصرفاته!

قـال لنفسـه: "لقـد غفلـت عـن سـيارة مسـيو رودلـز!.. وهـا أنـت تتنـاول غـداءك: فطـائر الزبيـب، في الحديقـة.. ثم.. ماذا بعـد؟" كـان لديـه يقـين بأنـه إذا لم ينتبـه الآن، وخصوصـاً إلى الأمـور الصـغيرة، وتلـك الـتي يمكـن أن تبدو تافهـة، مثـل نسـيان علبـة الحليـب الفارغـة، وإذا لم يعـالج الموضـوع بحـزم وتصـميم، فلـن يمـر وقـت طويـل، قبل أن تبدأ نهايته المأساوية، وسقوطه الحتمي.

رجع إلى الحديقة، ومن بعيد لمـح المقعـد الـذي كـان جالسـاً عليـه كـان مـايزال علـى حالـه، لم يجلـس عليـه أحد. وحين اقترب منـه، شـعر بارتيـاح كـبير عنـدما رأى علبـة الحليـب الفـارغـة في نفـس مكـانهـا الـذي تركهـا فيه، بين العوارض الخشبية الخضراء لمسند المقعد.. إذن

لم يكتشف بَعْدُ أي إنسان اهماله! وبإمكانه الآن أن يصحح خطأه الذي لا يُغتفر!.

انحنى خلف المقعد ومدّ يده اليسرى، وتناول العلبة الفارغة، ثم فرد جسمه، واستدار بحركة سريعة مرسومة جهة اليمين، إلى حيث توجد سلة المهملات.. وفجأة شعر بشد عنيف في بنطلونه، من أعلى إلى أسفل، لم يسمح له بالتراخي أثناء دورانه المتسرِّع، وسمع في الوقت نفسه صوت تمزق،وأحس بتيار من الهواء يلسعه في أعلى فخذه الأيسر، مما يدل على زوال الحاجز بين فخذه والهواء الخارجي.

تجمّد للحظة من الفزع، ولم يجرؤ على النظر إلى بنطلونه، لقد بدا صوت التمزق، وصداه الذي كان ما يزال يتردد في أذنيه، من القوة بحيث ظن معه، ليس فقط شيئاً قد تمزق في بنطلونه، بل كأن صدعاً عميقاً سرى في جسده من أعلاه إلى أسفله.وخُيّل له أن كل مَنْ حوله بالحديقة قد سمع الصوت، وينظر إليه الآن بغضب لكونه المتسبب فيه.

لكن أحداً - في الواقع، لم يكن ينظر إليه، إذ استمرت النساء المسنات في انهماكهن في شغل الإبرة الذي يقمن به، كما استمر الرجال المسنون في مطالعة صحفهم، كما استمر الأطفال القلائل الموجودون في ساحة الألعاب الصغيرة بالحديقة، في التزحلق واللعب.. أما المتشرد، فكان مايزال مستغرقاً في نومه.

خفض نظره ببطء نحو الشق في بنطلونه: كان طوله حوالي اثني عشر سنتيمتراً، ويبدأ من أعلى الفخذ حتى أسفل جيب البنطلون الأيسر، الذي شبك خلال دورانه في مسمار بارز بالمقعد، لم يكن فتقاً في خياطة البنطلون، وإنما شقاً في قماش الجباردين الجميل لبنطلون الخدمة البنكية. نازلاً من الجانب، ومنحرفاً بزاوية شبه قائمة إلى الداخل، بعرض إصبعين، مشكلاً فراغاً يرفرف فوقه علم مثلث، لا يمكن أن تغفله العين.

شعر "بالأدرينالين" يندفع في دمه.. هذه المادة المدغدغة التي قرأ ذات مرة أن الغدة الكظرية تضخها

في الدم بكثرة في أوقات الخطر المحدق وحالات الفزع الشديد، لتحفّز الحواس وطاقات الجسم إما للهرب أو للمواجهة، بالفعل كان يشعر كأنه جريح، وأن الشق الذي بطول اثنى عشر سنتيمتراً، ليس في بنطلونه فقط، وإنما في جسده أيضاً.. ومنه يتدفق دمه، وتتسرب روحه!.. وبدا له أنه سيموت إذا لم يتمكن فوراً من معالجته وإغلاقه.

وهنا بدأ "الأدرينالين" يفعل فعله، وينعشه بطريقة عجيبة، فبدأ قلبه يخفق بقوة، وازدادت شجاعته، كما أصبحت أفكاره أكثر صفاءً وتركيزاً. وهتف صوت في داخله: "عليك اتخاذ خطوة فورية لإغلاق هذا الشق، وإلا فإنك ضائع لا محالة!".وبينما راح يسأل نفسه عما يستطيع عمله، كان الجواب جاهزاً في ذهنه وبحركة سريعة قبض بيده اليمنى على علبة الحليب التي كان مايزال يمسكها في يده اليسرى، وجعّدها وكوّرها، ثم رماها بعيداً، دون أن يلتفت ليرى أين استقرت: في أحد الممرات أم على العشب؟..

ثم ضغط بيده اليسرى على الشق الموجود بأعلى فخذه، وانطلق مسرعاً، مصلّباً فخذه الأيسر قدر الإمكان، كي لا تنزلق يده عن الشق، ومحرّكاً ذراعه اليمنى بتأرجح سريع، كما لو أنها مجداف إلى جانبه.. وبمشيته العرجاء تلك اتجه إلى شارع "دوسيفر" ومنه إلى شارع "دوباك"، حيث سوبر ماركت "بون مارشيه".. فهناك توجد خياطة. كان قد لاحظ وجودها هناك منذ أيام قليلة فقط، تجلس إلى جانب مدخل السوبر ماركت، عند منطقة تجمّع العربات الصغيرة التي يضع فيها الزبائن مشترياتهم ويدفعونها أمامهم، وكانت هناك لافتة فوق ماكينة الخياطة، يذكر ما كان مكتوباً عليها: "مدام جانين توبيل - تعديل واصلاح - عناية وسرعة"!

هذه المرأة ستساعده بكل تأكيد..ولكن!.. ماذا لو كانت الآن في وقت راحة الغداء؟! عندئذ سيكون منحوساً نحساً لا مثيل له.. إنه لن يحتمل كل هذه

الكمية من سوء الحظ في يوم واحد، وخصوصاً الآن، وهو في مثل هذه الورطة!..

إن المرء حينما يكون يائساً يأساً شديداً، ربما يصادفه الحظ، وربما تأتيه النجدة.. ومدام توبيل ستكون في مكانها، وستنقذه حتماً.. حتى لو كانت في وقت راحتها!

وبالفعل، كانت مدام توبيل في مكانها!.. جالسة خلف ماكينتها، وتعمل!.. أسرع بالتوجه إليها، ثم توقف إلى جانبها.. رفع يده عن فخذه.. ثم ألقى نظرة سريعة إلى ساعته التي كانت تشير إلى الثانية وخمس دقائق، فاطمأن قليلاً.. إذ كان مايزال أمامه خمس وعشرون دقيقة، قبل أن يعود إلى البنك.. تنحنح.. ثم قال:

مدام..

أنهت مدام توبيل تخييط فستان أحمر ذي ثنيات كثيرة كان أمامها، ثم أوقفت ماكينة الخياطة، وحرّرت الفستان من تحت الإبرة، وقصّت الخيوط العالقة به، ثم رفعت رأسها، ونظرت إليه.

كانت ترتدي نظارة كبيرة جداً، ذات إطار صدفي سميك، وعدسات شديدة التحدب، جعلت عينيها تبدوان كبيرتين بشكل لافت للنظر. وكان شعرها الكستنائي اللون ينسدل بنعومة على كتفيها، وشفتاها كانتا مصبوغتين بلون بنفسجي فاتح. ربما كانت في نهاية الأربعين، أو في منتصف الخمسين.. لها مظهر النساء اللواتي يقرأن الطالع بواسطة الكرة الزجاجية، أو يفتحن (الكوتشينة) وتلك الفئة من النساء اللواتي قست عليهن الدنيا، ووصف سيدة أو (مدام) ما عاد مناسباً لهن، إلا أن المرء يجد نفسه منجذباً إليهن ويمنحهن ثقته. أصابعها كانت غليظة وقصيرة، لكنها رغم طبيعة العمل الذي تقوم به، بدت نظيفة وأنيقة، أناقة متواضعة، إذ كانت أظافرها مصبوغة بنفس اللون البنفسجي الفاتح الذي تصبغ به شفتيها.

أصلحت من وضع نظارتها على عينيها ، ودفعتها قليلاً أعلى أنفها ، لتستطيع تأمل جوناثان بشكل أوضح، ثم قالت ـ بصوت فيه بحة خفيفة:

- بماذا أستطيع خدمتك يا مسيو؟

أدار جوناثان جانبه الأيسر نحوها ، وهو يشير إلى الشق الموجود في بنطلونه، ثم قال:

- هل تستطيعين إصلاحه؟

وعندما لاحظ أنه طرح السؤال بشكل فظ، يكشف حالته العصبية المتوترة، الناجمة عن زيادة إفراز "الادرينالين" ، قال بصوت أخفت وبلهجة ألطف:

إنه شق صغير كما ترين.. إنه الحظ العاثر يا مدام توبيل.. هل يمكن عمل أي شيء لإصلاحه؟

وتركت مدام توبيل عينيها الواسعتين تنحدران على النصف الأسفل لجسم جوناثان، حتى عثرت على الشق أعلى فخذه، ثم انحنت برأسها لتفحصه، فانفرج شعرها الكستنائي الناعم، ليفصح عن رقبة بيضاء قصيرة ومكتنزة وتصاعدت في الوقت ذاته رائحة عطر

قوية فجّة ومخدرة، اضطر معها جوناثان أن يبتعد برأسه، ويقفز بنظره من الرقبة القريبة منه إلى السوبر ماركت الذي يقف أمام مدخله، وراح يتأمل المكان أمامه، بكل رفوفه وثلاجاته المكتظة بصنوف الجبن والسجق، وزوايا البضاعة المخفضة الأثمان، وأهرامات الزجاجات، وجبال الخضروات والفاكهة، وبين هذا وذاك، حشد الزبائن المتخبطين الذين يدفعون عربات التسوّق أمامهم، ويجرون أطفالهم الصغار خلفهم، إضافة إلى موظفي الخدمة ذوي الزي الموحد، والمحاسبين الجالسين أمام ماكينات النقود... حشد كبير من الناس، يدبّون كالنمل، وينشرون لغطاً وضجيجاً هائلاً.. وهو.. جوناثان .. يقف خارجهم ببنطلونه الممزق، دون أي ستار يستره من نظراتهم!

لذلك ومضت على الفور فكرة في ذهنه: ماذا لو كان بين هذا الحشد مسيو فيلمان أو مدام روك أو.. مسيو رودلز: المدير؟!

ربما يقوم أحدهم الآن بمراقبته، بينما هو واقف أمام إمرأة تجاوزت سن اليأس، تفحصه علناً في منطقة حساسة من جسده!..

وبدأ يشعر بالخجل الشديد، وهو يحس بأصابعها القصيرة الغليظة تلامس أعلى فخذه، وهي تفحص الشق، وتثني المثلث الصغير إلى الأمام وإلى الخلف.

رفعت مدام توبيل رأسها، وانتصبت في جلستها، مستندة إلى ظهر كرسيها، وابتعدت قليلاً عن جوناثان، بحيث انقطع تدفق رائحة عطرها في أنفه، مما أمكنه من خفض رأسه، وتحويل بصره عن المنظر المربك للسوبر ماركت وزبائنه. وحدّق في العدسات الكبيرة المحدّبة لنظارتها، ثم سأل بترقب:

- والآن؟

ثم كرر:

- والآن؟

كان مذعوراً.. وكأنه يقف أمام طبيبة يتوقع منها تشخيصاً فظيعاً لحالته.

- لا توجد مشكلة!.. يجب ترقيع الشق ووضع قطعة من القماش تحته.. إلا أن أثر خياطة صغير سوف يبقى مرئياً بعض الشيء.. لا يمكنني أن أفعل ما هو أفضل من ذلك.

- لا بأس بهذا على الإطلاق.. أثر خياطة صغير لا يؤثّر أبداً.. ليكن!.. ثم من الذي سيرى تلك الرقعة المحجوبة عن النظر؟!

وألقى نظرة خاطفة إلى ساعته: كانت تشير إلى الثانية إلا أربع عشرة دقيقة، ثم قال:

- إذن تستطيعين إصلاحه يا سيدتي.

- بكل تأكيد!

ردت على استفساره بينما كانت تعدل من وضع نظارتها التي هبطت إلى أسفل أنفها أثناء معاينتها للشق.

- أوه.. إنني في غاية الامتنان يا سيدتي.. أشكرك جداً.. إنك تحررينني من حرج كبير.. لكن لي رجاء صغير: هل يمكنك..؟.. هل تتكرّمين عليّ..؟ إنني في الواقع في عجلة من أمري.. لم يبق لديّ من الوقت إلا..

ونظـر إلى سـاعته - .. إلا عشـر دقـائق.. فهـل يمكنـك إصلاحه الآن؟.. أعني فوراً؟.

هنـاك أسئلة كثيرة يكـون الـرد المتوقـع عليهـا هـو النفي، بمجرد أن يتم طرحها، وهناك رجاء يتضح عـدم جدواه بمجرد نطقـه، والنظـر في عيني مَنْ يتلقـاه. وهـذا ما حدث مع جوناثـان. فمـا أن نظـر في عيني مـدام توبيـل الـتي كانـت النظـارة تضخمهما، حتى أدرك فـوراً عبثيـة الموقـف، أو عـدم جـدواه، وانعـدام الأمـل في تحقيـق مـا يريـد. لقـد عـرف الجـواب مسـبقاً، وهـو مـا يـزال يطـرح سـؤاله المتلعـثم، أدركـه مـن خـلال إحساسـه بجسـده، عندما شـعر بهبـوط مستوى (الأدرينـالين) فيـه، في نفـس اللحظة التي نظـر فيهـا إلى سـاعته: عشـر دقـائق فقـط!.. وراح يشعر كأنه يهبط.. يغرق.. أو كمـا لـو كـان يقـف علـى رقعـة هشـة مـن الجليـد في طريقهـا إلى الـذوبان والغـوص في قـاع المحـيط المتجمـد مـن حولهـا.. عشـر دقـائق؟!.. كيـف يـتمكن شـخص مـا مهمـا كانـت

مهارتـه، مـن ترقيـع هـذا الشـق المخيـف خـلال عشـر دقائق؟!

.. إن هـذا غـير ممكـن.. بـل مسـتحيل ثـم كيـف سيتسنى لها ترقيع الشق وهـو واقف أمامها هكذا؟.. لابد أن يخلع بنطلونه.. ولكن كيف؟.. ومن أين سيأتي ببنطلون آخر الآن ليلبسه بدلاً من البنطلون المخلوع.. أم أنـه سـيقف أمامهـا بملابسـه الداخليـة.. هـراء.. هـراء شديد! قالت مدام توبيل ـ باستغراب واستنكار معاً:

- فوراً؟!.

وعلى الرغم من أن جوناثان كان يدرك سلفاً عبثية الموقف، وعلى الرغم من حالة الإحباط التي تمكنت منه، إلا أنه أومأ برأسه إيجاباً.

فابتسمت مدام توبيل وقالت:

انظر يا سيدي.. إن كل ما تراه هنا ـ وأشارت إلى شماعة ملابس بطول مترين معلق عليها الكثير من القمصان والبنطلونات والفساتين والجاكتات ـ كل هـذه الأشـياء يجـب علـيّ إصـلاحها والانتهـاء منهـا

فوراً!..وأنا لا أمانع.. لكن كيف؟.. إنني أعمل عشر ساعات في اليوم.

فعلّق جوناثان على قولها:

- نعم.. مفهوم.. مفهوم تماماً يا سيدتي.. لقد كان سؤالاً أحمقَ والآن..كم تظنين سيستغرق الأمر، حتى تتمكني من رتق هذا الشق؟ استدارت مدام توبيل من جديد نحو ماكينة الخياطة، وأعادت وضع الفستان الأحمر ذي الثنيات الكثيرة عليها، ثم أنزلت ذراع التثبيت الحديدي الصغير، وقالت:

- إذا أحضرت لي هذا البنطلون يوم الاثنين المقبل، فسيكون جاهزاً بعد ثلاثة أسابيع.

- ثلاثة أسابيع؟!

- نعم.. ثلاثة أسابيع.. قبل هذا غير ممكن!

ثم أدارت ماكينة الخياطة، وانطلقت الإبرة تقرقر. بينما شعر جوناثان كما لو كان يتبخّر في الهواء، أو يتلاشى من الوجود، رغم أنه كان يرى أمامه بوضوح مدام توبيل تجلس خلف ماكينتها، على بعد أقل من

ذراع.. كان يرى رأسها وشعرها الكستنائي ونظارتها ذات الإطار الصدفي، وأصابعها القصيرة الغليظة التي تعمل بخفة ومهارة، ويرى إبرة الخياطة وهي تصعد وتهبط بسرعة كبيرة زارعة حاشية الفستان الأحمر بالغرز... وكان يرى بشكل ضبابي الحركة الدائبة بداخل (السوبر ماركت).. كان يرى كل شيء من حوله، فيما عدا نفسه.. أوما عاد يرى نفسه كجزء من العالم المحيط به.

وتملكه شعور - لبضع ثوان - كما لو أنه بعيد جداً.. في خارج بعيد جداً.. أوكما لو كان يتأمل العالم وينظر إليه من خلال منظار مقلوب.

ومرة أخرى - وكما حدث له في الصباح، شعر بالدوار، وبدأ يترنّح فخطا خطوة جانبية - بلا إرادة، ثم استدار واتجه نحو مدخل (السوبر ماركت). ومن خلال حركة المشي، ونقل الأقدام، وجد طريقه إلى العالم من جديد، واختفى من عينيه تأثير المنظار المقلوب.. إلا أنه في داخله، كان ما يزال يترنّح.

توقف في قسم الأدوات المكتبية، واشترى شريطاً لاصقاً. ثم قام بلصق قطعة منه على الشق في بنطلونه، ليمنع ذلك المثلث الصغير ـ أو الراية، من الرفرفة عند كل خطوة يخطوها. ثم عاد إلى مكان عمله بالبنك.

أمضى فترة ما بعد الظهيرة بمزاج معتلّ.. خليط من التعاسة والغضب.. وقف أمام البنك، على العتبة الرخامية بجانب الدعامة، دون أن يستند عليها هذه المرة لأنه لم يكن يريد الاستسلام لضعفه من ناحية، ومن ناحية أخرى لم يكن متاحاً له الاستناد، حتى لو أراد ذلك. فكيف يستند، دون أن يلفت الانتباه إليه؟ كان عليه أن يشبك يديه خلف ظهره، وهذا ليس متاحاً أو ممكناً. فيده اليسرى يجب أن تبقى مدلاة إلى جانبه، لكي تخفي الشريط اللاصق الذي وضعه فوق الشق.وعوضاً عن هذا ، وجد نفسه، في محاولة للوقوف بشكل يبدو ثابتاً، مضطراً إلى الوقوف بساقين منفرجتين، كما يفعل أولئك الحراس الشبان الأغبياء.

ثم لاحظ ما نجم عن وقفته هذه من تحدّب عموده الفقري، وهبوط رقبته ـ التي تكون في العادة مشدودة باستقامة بين كتفيه، ومعها رأسه والقبعة.

كما لاحظ ما نتج أيضاً عن هذا الوضع ـ وبشكل أوتوماتيكي ـ من انطفاء تلك النظرة الجدية الخبيثة المتوقدة من تحت حافة القبعة، وظهور تلك النظرة المتبرّمة المتذمرة التي دائماً ما كان يكرهها ويستنكرها بشدة عند الحراس الآخرين ـ وخصوصاً الشبان منهم.

رأى نفسه، كما لو كان مشوّهاً.. أو كما لو كان رسماً كاريكاتورياً لرجل حراسة!

وكره نفسه بشدة في تلك اللحظات.. وودّ لو يستطيع أن يخرج من جلده من شدة غضبه وحنقه على نفسه.

كان يريد أن يخرج من جلده، بكل ما للكلمة من معنى! إذ كانت لديه رغبة شديدة في حك جلده فالعرق كان ينضح من كل مساماته، مما جعل ثيابه تلتصق

بجسده، وكأنها جلد ثان له!.. وفي الأماكن التي لم تلتصق ثيابه بجسده فيها بعد ـ أسفل فخذيه وذراعيه وأسفل عظم قفصه الصدري ـ كانت رغبته أشد ما تكون في حك جلده، حيث كانت قطرات كاملة من العرق تدب منزلقة، في هذه الأماكن بالذات.

لم يكن يريد أن يخفف من تأثير هذا العرق.. ولو قليلاً!.. فهذا لن يغيّر من حالته العامة التي كانت في منتهى السوء.

إنه الآن يتعمد أن يزيد من معاناته.. فالمعاناة تبدو له حلاً أمثلَ، إذ تبرز وتعزز كرهه وغضبه. وكرهه وغضبه بدورهما كانا يفرزان معاناته.. يجعلان دمه يغلي ويفور، ويدفعان بموجات جديدة من العرق في كل مسامات جلده.

كان وجهه غارقاً كله بالعرق، وقطرات كاملة منه كانت تتصبب بغزارة من ذقنه ومن حافة قبعته الملتصقة بجبهته المترهلة، والتي كانت تسبب له ألماً شديداً، إلا أنه لم يكن لينزعها عن رأسه، مقابل أي

شـيء.. حتـى ولـو لوهلـة. إذ يجـب أن تظـل فـوق رأسـه ﯾﻔ

وضع مضبوط تماماً، كغطاء قدر الطهي الموضوع فـوق الموقـد، أو كـالطوق المعـدني، حتـى لـو تصـدّعت تمامـاً من جراء ذلك.

لم يكـن يريـد أن يبـذل أي محاولـة ليخفـف مـن معاناته وألمه.. كـان مستسـلماً لتأمـل كيـف راح عمـوده الفقـري يـنحني أكثـر، وكيـف كـان كتفـاه ورأسـه ورقبتـه يهـبط أكثـر فـأكثر، وكيـف أصـبح جسـده يتخذ وقفة أكثر انبعاجاً كوقفة كلب شرس عجوز.

أخـيراً، ودون إرادة منـه، أو قـدرة علـى الـتحكم، تحرر كرهه الدفين لنفسه، وتدفق نحو الخارج، تـدفق مـن عينيـه الجـاحظتين اللـتين تـزدادان عتمـة وقسـوة، والقـابعتين تحـت مظلـة القبعـة، وانصـبت ككـره علـني وداعر على العالم الخـارجي كلـه، فبـدأ يغـرق كـل مـا يقع تحت بصره من صدأ كرهه وحنقه الشديد.

بإمكـان المـرء أن يـدّعي بثقـة تامـة، أن الصـورة الحقيقيـة للعـالم الخـارجي، لم تعـد قـادرة علـى اخـتراق

عقـل جوناثـان، كمـا لـو كـان اتجـاه الإشـعاع قـد انعكـس، وأصبحت عينـاه مجـرد بوابـات تقـذف العـالم بصـور مشـوهة عنـه، باتجـاه الخـارج فقـط . هنـاك في الجانـب المقابـل مـن الشـارع، حيـث كـان الجرسـونات الشبان الحمقى، يقفون على رصيف المقهى المواجه لمبنى البنـك، ويتسـكعون بوقاحـة بـين الطـاولات المصـفوفة والكراسـي، يلغطـون مـع بعضـهم الـبعض، ويتبـادلون الشـتائم ويتضـاحكون، ويعترضـون المـارة، ويصـفّرون للنسـاء.. أولئـك الـديوك، لا يفعلـون أي شـيء سـوى أن يصرخوا من خـلال الفتحـة المستديرة المطلـة علـى مطبخ المقهـى، مـرددين صياح أحـد الزبـائن وهـو يطلـب شيئاً، مـن حـين لآخـر: واحـد قهـوة.. واحـد بيرة.. واحـد عصـير ليمـون!.. ثـم يسـترخون. وبعـدها يتحركـون بسـرعة مفتعلـة، ليتنـاولوا الطلبـات بحركـات بهلوانيـة، ويقـدمونها للزبـائن ببهلوانيـة أكثـر، فيضـعون الكـأس علـى الطاولـة، ويدفعونـه ليـدور حـول نفسـه في حركـة حلزونيـة، أو يضـعون زجاجـة الـبيرة أو الكوكـاكولا

بين الفخذين ليفتحوها بحركة واحدة سريعة، فيها الشكل البهلواني. أو يضعون الفاتورة بين شفاههم ، ثم يلفظونها ويحشرونها تحت منفضة السجائر بإحدى يديهم، بينما تكون يدهم الأخرى مشغولة بحساب الطاولة المجاورة، وتقبض أموالاً كثيرة: تترجم الأسعار الفاحشة: خمس فرنكات لفنجان القهوة.. أحد عشر فرنكاً للبيرة، بالإضافة إلى خمسة عشر بالمائة لخدمة القرود التي يؤدونها. وأخيراً البقشيش!

إن هؤلاء التنابلة المغرورين ينتظرون أن يترك لهم الزبون بعد كل هذا بقشيشاً!! وإلا فإنه لن يسمع كلمة شكر تتحرك بها شفاههم، أو كلمة مع السلامة!.. فبدون البقشيش يصبح الزبون عندهم كالهواء، لا يرونه! وأثناء مغادرته للمقهى لا يرى منهم سوى أقفيتهم وأردافهم المستفزة، التي تعلوها جيوب تحتوي على محافظ سوداء منتفخة بالنقود... وآه.. أولئك الحمقى المتبخترون.. لكم يود لو يمزق أجسادهم بنظراته.. أولئك الأجلاف المنتفخون في قمصانهم

الفضفاضة ذات الأكمام القصيرة.. لكم يود لو يندفع نحوهم، ويمسكهم من آذانهم،ويشدهم من تحت مظلة المقهى، إلى عرض الشارع، ويظل يصفعهم على وجوههم يميناً ويساراً، ثم يركلهم، ويركلهم، حتى تحمّر مؤخراتهم الاستفزازية.

وليسوا وحدهم فقط!.. لا.. ليس فقط تلك الملاعق الصدئة من الجرسونات.. الزبائن أيضاً يجب أن يركلوا ويصفعوا على أقفيتهم حتى تحمّر وتلتهب!.. والسياح كذلك، الذين يتسكعون ببلاهة ببنطلوناتهم القصيرة وقمصانهم الشفافة، وقبعات القش فوق رؤوسهم، ونظاراتهم الشمسية.. الذين يتناولون المشروبات الباهظة الثمن، بينما يقف آخرون غيرهم، والعرق يتصبب من جباههم، وهم يكدحون لكسب قوتهم.. وسائقو السيارات هم الآخرون.. أولئك القرود البلهاء الذين يجلسون في صناديقهم المعدنية النتنة، يلوّثون الهواء، ويملؤن الشوارع ضجيجاً، ولا يفعلون شيئاً طوال يومهم، غير قيادة سياراتهم بسرعة جنونية، وهم يصعدون

ويهبطون شارع "دوسفر"، ملوّثين الهواء بعوادم سياراتهم، وكأن ما يتشبع به الهواء من روائح نتنة لا يكفيهم، ولا يكفيهم الضجيج الذي يملأ هذا الشارع، بل والشوارع الأخرى، والمدينة بكاملها.. ألا يكفي لظى الحر اللاهب النازل من السماء؟. . هل يجب عليكم أيضاً أن تشفطوا وتحرقوا بمحركاتكم آخر ما تبقى من هواء نظيف يمكن استنشاقه، لتنفثوه في أنوف المواطنين الشرفاء مخلوطاً بالسم والصدأ والدخان؟.. أكياس قمامة أنتم!.. رعاع مجرمون!.. يجب أن تستأصل شأفتكم. نعم، يجب جلدكم، ثم القضاء عليكم، وإعدامكم رمياً بالرصاص.. كلٌ على حدة أو جميعكم معاً.

كانت تتملّكه رغبة في أن ينتزع مسدسه ليطلق النار في اتجاه ما.. نحو عمق المقهى، أو في منتصف الواجهات الزجاجية.. فلا يسمع المرء إلا دوي الرصاص، وصوت تكسر الزجاج. أو باتجاه هذه الحشود من السيارات، أو باتجاه أحد المباني الضخمة بالطرف

الآخر من الشارع.. تلك المباني العالية القبيحة المرعبة. أو في الهواء.. باتجاه السماء. نعم، باتجاه السماء الساخنة.. المنفرة.. المكفهرة.. ذات اللون الأزرق الفاتح كلون الحمامة.

كان يريد أن يطلق النار باتجاهها، علّها تنفلق وتتداعى قبتها الثقيلة، فتسقط وتسحق كل شيء، وتفنيه تحتها. كل شيء.. كل شيء.. من هذا العالم الكريه الصاخب ذي الرائحة النتنة.

بهذا الشمول وهذه الضخامة، كان حقد جوناثان في هذا اليوم، كان يتمنى أن يتحول العالم إلى خرائب وأطلال... بسبب شق في بنطلونه!

لكنه لم يفعل شيئاً!.. فلم يطلق النار نحو السماء، ولا نحو المقهى، أو العمارات العالية أو السيارات المارة.

وظل واقفاً يتصبب عرقاً، دون أن يحرك ساكناً. والطاقة نفسها التي فجرّت فيه حقده العارم ضد العالم أجمع، شلّته تماماً، بحيث لم يعد قادراً على تحريك أي عضو في جسده. فما بالك بتحريك يده في اتجاه

مسدسه، أو الضغط على الزناد بإصبعه. نعم.. لم يعد بإمكانه حتى مجرد هز رأسه ليتخلص من قطرة عرق كانت عالقة بطرف أنفه، وتزعجه.

لقد قامت هذه الطاقة الغاضبة بتجميده، وحولته خلال ساعات قليلة، إلى صورة تشبه تمثال أبي الهول بعظمته وعجزه. وبدت تلك الطاقة، كما لو كانت طاقة تمني. وكانت صورها أو احتمالاتها تقتصر على: لو أنني استطعت.. لو أنني فعلت كذا.. أود لو كان بإمكاني أن....

إن جوناثان الذي راح يدبّج من داخل نفسه، أقصى أمنياته سواداً بحدوث الكوارث والمصائب، كان يعرف في ذات الوقت أنه لن يتمكن أبداً من تحقيقها، وأنه ليس الرجل المناسب لهذه الأفعال، فهو ليس رجلاً مجنوناً يقوم في حالة من الاضطراب النفسي والضياع، أو بدافع الكُره الغريزي، بإرتكاب أفعال إجرامية. ليس لأن تلك الأفعال كانت بنظره لا أخلاقية، وإنما ببساطة لأنه كان دائماً ما يعجز عن التعبير عن نفسه

بالأفعال أو بالكلمات.. إنه لم يكن فاعلاً أبداً، لا اليوم ولا من قبل، وإنما كان متلقياً صبوراً.

حوالي الساعة الخامسة، وصلت حالته إلى درجة من اليأس الشديد، ظن معها أنه لن يتمكن من مغادرة مكانه إلى جانب الدعامة المستند عليها أمام مدخل البنك، وأنه سيموت حالاً وهو واقف!

لقد أحس بأن عمره قد زاد على الأقل عشرين سنة، وأن قامته الطويلة قد قصرت عشرين سنتيمتراً على الأقل؛ خلال وقوفه في المكان منذ ساعات، يتلقى قيظ الشمس الخارجي، ويذوب بحرارة حقده الداخلي، ويتلف.

نعم.. لقد أحس بنفسه مهترئاً، إذ لم يعد يشعر برطوبة عرقه.. مهترئ ومهلهل.. منطفئ ومتصدع، كتمثال أبي الهول الحجري، بعد خمسة آلاف سنة.

ولن ينقضي وقت طويل عليه، حتى يجف تماماً، فيحترق ويتقلص ويتفتت، ويصير رماداً، وسيسقط في هذه البقعة، حيث مازال يحاول أن يبقى واقفاً على

قدميه، مثل كومة قذارة صغيرة، لتأتي ريح فتبعثرها، أو تكنسها عاملة النظافة، أو يجرفها المطر.

نعم.. هكذا ستكون نهايته: ليس كرجل مسن متقاعد، محترم، يتمتع بصرف معاشه في بيته.. بين حيطانه الأربعة.. ملجأه الآمن، وحصنه المنيع. بل هنا أمام باب البنك ككومة قذارة!

كان يود لو ينتهي الآن، في هذه اللحظة.. لو يتسارع انهياره، ويكون موته. أن يفقد وعيه، ولا تحمله قدماه، فيسقط مغشياً عليه. لذلك راح يبذل جهداً كبيراً كي يغيب عن وعيه.

في طفولته كان دائماً يستطيع أن يفعل ذلك، فيحبس نفسه حتى يفقد الوعي أو يوقف ضربات قلبه.. أما الآن، فإنه لم يعد مستطيعاً فعل أي شيء.. لم يعد مستطيعاً التحكم في نفسه أو قدراته مطلقاً.. أو حتى ثني ركبتيه، لكي يتداعى ويسقط. لم يعد بإمكانه إلا الوقوف كما هو، ليتلقى ما يمكن أن يحدث له.

فجـأة تنبّـه إلى الفجيـع البعيـد لمحـرك سـيارة مسـيو رودلـز.. لم يسـمع صـوت آلـة التنبيـه.. فقـط سمـع الأزيـز الخفيف، الذي كـان يسمعه دائمـاً حـين تقـترب السـيارة ببطء من بوابة الخـروج بالفناء الخلفي للبنك.

ومـن خـلال تسـلل هـذا الأزيـز إلى أذنيـه، وسـريانه - مثـل تيـار كهربـي - في كـل شـبكة أعصـابه، شـعر بطقطقة مـن مفاصله، وتمـدد في عمـوده الفقـري. كمـا أحس - دونمـا أي تـدخل إرادي منـه - بـاقتراب سـاقيه مـن بعضهما، واستدارة قدمه اليسرى، وإنثناء ركبته تأهباً للمسـير، ثـم تلتهـا قدمـه اليمنـى.. وهكـذا راح يمشـي فعـلاً!.. بـل يهـرول.. ويهـبط درجـات سـلم مـدخل البنـك الرخامية الثلاث، ثم يسرع خفة بمحـاذاة حـائط البنـك، حتى مدخل السيارات.. يفتح البوابة، ويقف منتصباً، ثـم يرفـع يـده اليمنـى بعصـبية شـديدة، إلى حافـة قبعتـه، مؤديـاً التحيـة.. ويـترك السـيارة تمـر!! كـل ذلـك فعلـه بأوتوماتيكيـــة محضـــة، دوى أي إرادة، واقتصـــرت مشاركة وعيه على العلم بـالأمر، وتسجيل الحركـات

والأفعال، بل إن الإسهام الوحيد الذي قام به ، وهوواعٍ هو متابعته لسيارة مسيو رودلز، وهي تتحرك مبتعدة، وإلقاؤه نظرة ملؤها الشر خلفها، وتمتمته بلعنات كثيرة.

في طريق عودته إلى موقعه أمام البنك، تلاشى غضبه، وهدأت نفسه قليلاً، ربما بسبب هذه الومضة الإرادية الأخيرة.

وبينما كان يصعد الدرجات الرخامية الثلاث، بطريقة آلية، نضب كل ما في قلبه من حقدٍ وكراهية.

وحين وصل إلى مكانه على العتبة الرخامية، إلى جوار القائم الذي كان يستند عليه، كانت النظرات السامة من عينيه، قد اختفت. وأخذ ينظر إلى الشارع أمامه، نظرة فيها شيء من الانكسار.

أصبح يبدو له الأمر، كما لو أن عينيه ما عادتا ملكه.. أو كما لو كان يجلس خلف عينيه، وينظر!.. مثلما ينظر المرء من خلال نافذة جامدة مدوّرة. نعم.. أصبح يشعر كأن هذا الجسد كله الذي يحيط به، لم

يعد جسده، بل كأنه هو - جوناثان - أو هذا الذي بقي منه، ليس أكثر من جني صغير منكمش ومحبوس في قفص ضخم.. أو قزم عاجز مسجون في آلة آدمية شديدة الضخامة والتعقيد، وليس بإمكانه السيطرة عليها أو التحكم فيها، أو قيادتها وتوجيهها كما يريد.. بل كانت هي تُسَيّر نفسها بنفسها.

في هذه اللحظة، كانت تلك الآلة، تقف أمام الدعامة؛ ليس مثل أبي الهول، في استرخائه، بل مركونة ومعلقة مثل إحدى دمى مسرح العرائس. وظلت واقفة مدة العشر دقائق المتبقية على موعد الانصراف من البنك، حين أطل مسيو فيلمان للمرة الأخيرة من البوابة الزجاجية المسلحة ليقول:

سوف نغلق.. هيا!

وهنا بدأت هذه الآلة.. أو الدمية.. أو (جوناثان) بالحركة طواعية ودخلت مبنى البنك . جلست أمام لوحة التحكم الكهربية، وشغّلتها، وبدأت بالضغط تباعاً على زرّي البابين المسلحين الداخلي والخارجي،

ليتمكن الموظفون من مغادرة مبنى البنك. ثم أغلقت سوية مع مدام "روك" الباب المضاد للحريق، المؤدي إلى غرفة الخزينة، التي كانت مدام "روك" ذاتها قد فتحتها في الصباح مع مسيو "فيلمان". ثم حررت الآلة ـ أو جوناثان ـ بالاشتراك مع مسيو فيلمان جهاز الإنذار ، ليكون جاهزاً للعمل عند أي سرقة تحدث، وأخيراً أبطلت لوحة التحكم الكهربية، وغادرت البنك، مع مدام "روك" ومسيو "فيلمان".

بعد ذلك قامت بانحناءة خشبية خفيفة تحيه لمدام روك ومسيو فيلمان.. حيث فتحت فمها وتمنّت للاثنين مساءً سعيداً وعطلة نهاية أسبوع هانئة.

وتلقّت بكل عرفان: "إجازة سعيدة" من مسيو فيلمان. و"نلتقى يوم الإثنين"! من مدام روك. ثم انتظرت بلباقة حتى ابتعد عنها الاثنان بضع خطوات، ثم انتظمت في سبيل المشاة، تاركة نفسها تندفع في الجهة المعاكسة.

المشـي يهـدئ الأعصـاب.. مـا في ذلـك شـك. ففيـه تكمن قوة خفية شـافية!.. فهـذه الرتابـة في تحريـك قـدم تلو أخرى، بإيقاع منتظم، متـزن، مـع التلـويح بالـذراعين علــى الجــانبين، وهــذا التســارع في ترديــد الــنفس، والنشاط الخفيف في النبض، وذلك التوظيف الضـروري للعيــنين والأذنــين، لتحديــد الاتجــاه والمحافظــة علــى التوازن، وهذا الشعور بـالهواء الـذي يلفـح الجسـد.. كـل هذه أشياء تجبر الروح والجسد على التوحد معاً بطريقـة حتمية، وتجعل النفس، حتى لو كانت في أشد حالاتهـا غياباً وتثاقلاً، تنمو وتزدهر.

هـذا مـا حـدث لجوناثـان.. فـالجني الصـغير المحبـوس بداخلـه، أخـذ ينمـو شـيئاً فشـيئاً، وخطـوة بعـد خطـوة، حتـى مـلأ جسـده كلـه. وبـدأ جوناثـان يسـتعيد سـيطرته عليه باطراد، حتى تمكن أخيراً من التوحد معه.

اكـتمل هـذا تقريبـاً عنـد زاويـة شـارع "دوبـاك" الـذي قطعـه جوناثـان، وبـدلاً مـن أن ينعطـف في شـارع "سـانت بلاسـيد" حيـث يقـع الفنـدق الـذي حجـز بـه غرفـة مضـى

باستقامة في شارع "آبيه جريجوار"، ومن هناك اتجه إلى شارع "فوجيرار"، ثم إلى منتزه "لوكسمبورج"، دخل المنتزه، وقام بالتجول داخله ثلاث مرات، سالكاً الممرات الجانبية الأكثر طولاً به، والتي يمارس بها الناس عادة الجري تحت الأشجار. ثم خرج من المنتزه، واتجه جنوباً نحو "بوليفار دو مونبارناس"، وصعد حتى مدافن "مونبارناس".. دار حولها مرة، ثم مرة ثانية، ثم اتجه غرباً إلى المنطقة الخامسة عشرة، واخترقها حتى وصل إلى نهر السين. مشى على ضفته صاعداً باتجاه الشمال الشرقي حتى المنطقة السابعة، ثم السادسة.. دائماً أبعد، وأبعد.. ثم عاد إلى منتزه "لوكسمبورج" الذي كان يغلق أبوابه في الوقت الذي كان يقترب منه. فتوقف عند بوابته الحديدية.

كانت الساعة تقترب من التاسعة مساءً، لكن الشمس كانت ما تزال ساطعة، كما في وضح النهار تقريباً. في حين بدأت الشوارع تخلو من المارة، بعدها ذهب البعض ليتناول كأساً في أحد البارات، وذهب

البعض الآخر إلى مطعم، والغالبية منهم عادت إلى بيوتها.

كان الهواء عليلاً مشبعاً برائحة ورد خفيفة. وعمّ الهدوء: باريس كلها كانت في ذلك الوقت تتناول الطعام.

فجأة شعر جوناثان بالتعب.. كل جسده كان يؤلمه من السير على قدميه لعدة ساعات، وكان يشعر بالجوع.. وجوعه كان من الشدة بحيث جعل معدته تتشنج. كانت لديه رغبة في تناول الحساء والسلطة مع خبز أبيض طازج وقطعة لحم. كان يعرف مطعماً قريباً، في شارع "ديكانيت" يقدم كل هذه الأصناف مجتمعة كوجبة واحدة، مقابل سبعة وأربعين فرنكاً ونصف، بما في ذلك الخدمة. لكنه لم يكن يريد أن يذهب إليه وهو في تلك الحالة، فرائحة العرق تفوح منه، كما أنه مازال يرتدي بنطلونه الممزق. لذلك قرر الذهاب إلى الفندق الذي حجز به غرفة.. وفي الطريق إليه، اشترى من محل بقالة تونسي، كان مازال

مفتوحاً، علبة سردين، وقالباً صغيراً من جبن الماعز، وحبة كمثرى، ورغيف خبز عربي، وزجاجة نبيذ أحمر.

كانت غرفة الفندق أصغر من غرفته التي يعيش بها في شارع "دولا بلانش". عرضها لايكاد يتجاوز عرض بابها، أما طولها فلا يكاد يتجاوز الثلاثة أمتار. جداراها الطوليان لا يتوازيان مع بعضهما كالمعتاد ـ إذا نُظر إليهما من ناحية الباب ـ وإنما ينفرجان متباعدين عن بعضهما البعض، حتى تصبح المسافة بينهما قبيل نهاية الغرفة حوالي مترين، ثم يتقاربان بشدة، ليلتقيا في النهاية، صانعين ما يشبه شكل التابوت، ولم تكن على أية حال أكبر منه كثيراً. فالسرير كان يلاصق أحد جداري الغرفة، بينما كان بالجدار الآخر حوض غسيل، تحته مرحاض يمكن تحريكه إلى الأمام وإلى الخلف. وفي نهاية الغرفة، في الجزء المثلث الشبيه بالمحراب، كان هناك كرسي صغير وحيد. وفوق حوض الغسيل بالقرب من السقف، كانت هناك

نافذة، أو بالأحرى فتحة صغيرة مزججة، يمكن فتحها وغلقها بواسطة سلكين معدنيين رفيعين يتدليان على جانبيها. عبر هذه الفتحة أو النافذة تسربت لفحات خفيفة من الهواء الرطب الدافئ إلى داخل التابوت أو الغرفة، حملت معها بعض اللغط الخافت من العالم الخارجي: قرقعة صحون.. خرير ماء في مرحاض.. بضع كلمات برتغالية وإسبانية.. بعض ضحكات.. صراخ طفل.. صوت آلة تنبيه لسيارة منطلقة بعيداً.

جلس جوناثان على السرير بملابسه الداخلية، ثم سحب الكرسي الوحيد الموجود بالغرفة، ووضعه أمامه، ثم وضع فوقه حقيبة ملابسه، وفرد عليها كيساً ورقياً، ثم وضع عليه الطعام الذي كان قد اشتراه، وهو في طريق عودته، وراح يأكل.

كان يشق السردينة الواحدة بمطواته، فيجعلها شريحتين طوليتين، ثم يلتقط إحداها بطرف المطواة، ويضعها على قطعة الخبز، ثم يدفعها بداخل فمه، ويمضغها، فيختلط السردين المشبع بالزيت، بالخبز،

وتتشـــكل منهمـــا كتلـــة ذات طعـــم شـــهي.. فكـــر: "لاينقصها إلا الليمون!" وبعد أن تناول رشفة من النبيذ الأحمر، اختلط مذاق السردين بنكهة النبيذ المنعش المائل إلى الحموضة، وتشكل من السردين والخبز والنبيذ طعم لذيذ، جعله يقتنع بأنه لم يسبق له في حياته أن تناول وجبة من الطعام ألذ من ذلك. كانت علبة السردين تحتوي على أربع سردينات.. تناولها مع الخبز - بعد أن شق كلاً منها نصفين - ثماني مرات.. مُتبعاً كل مرة منها برشفة من النبيذ.

كان يأكل ببطء شديد، ويتمهل كثيراً في المضغ، فقد قرأ ذات مرة في جريدة، أن الأكل بسرعة، وخصوصاً حين يكون المرء في حالة من الجوع الشديد، ضار بالصحة، ويتسبب في مشاكل هضمية. وفي بعض الحالات يؤدي إلى الشعور بالغثيان والرغبة في التقيؤ.

وكان هناك سبب آخر لبطئه في الأكل؛ إذ كان يظن أن تلك هي آخر وجبة له في حياته!

بعد أن أجهز على السردينات الأربع، مسح الزيت المتبقي بعلبة السردين، بقطعة من الخبز، دسها في فمه، وراح يمضغها مستمتعاً بطعمها الشهي.

ثم شرع في تناول جبن الماعز وحبة الكمثرى. كانت الكمثرى ناضجة وطرية إلى حد أنها كادت تنزلق من يده، وهو يقوم بتقشيرها. بينما كان الجبن متماسكاً ولزجاً إلى حد أنه كان يلتصق بنصل المطواة عندما كان يقطعه. وما أن وضعه في فمه حتى شعر بأن طعمه مر ومائل إلى الحموضة، مما جعل لثته تنقبض، كما لو أن هلعاً أصابها، ولوهلة وجيزة انقطع تدفق اللعاب في فمه.. إلا أن حبة الكمثرى كانت هناك، وقضمة منها أعادت بحلاوتها ونعومتها، كل شيء إلى سيلانه وتمازجه، بعد تحرر الجبن من سقف الحلق الذي التصق به، ومن بين الأسنان.

راح يعيد الكرة، فيأخذ قطعة من الجبن ويضعها في فمه، فتنقبض اللثة فيقضم قطعة من الكمثرى تعالج هذا الانقباض.. وهكذا: جبن ثم كمثرى.

كان يتلذذ بالأكل، إلى درجة أنه قام بكشط بقايا الجبن بالمطواة من على الورقة التي تغلّفه. كما قام بالتهام أطراف قشرة الكمثرى، التي كان عادة لا يأكلها، وراح يمص قلبها الذي يحتوي على البذور.

ظل جالساً فترة، مستمتعاً بلحس أسنانه بلسانه، قبل أن يأكل ما تبقى من الخبز، ويشرب النبيذ المتبقي في الزجاجة.

وأخيراً وضع علبة السردين الفارغة وبقايا حبة الكمثرى وغلاف الجبن الورقي وفتات الخبز في الكيس الورقي الذي كان يفرشه على الحقيبة أمامه، ثم وضعه مع زجاجة النبيذ الفارغة إلى جانب باب الغرفة.

بعد ذلك رفع الحقيبة عن الكرسي، وأعاد الكرسي إلى مكانه في (المحراب). ثم غسل يديه، واتجه إلى السرير.

أزاح البطانية الصوف من على السرير، وطواها، ووضعها عند أسفل السرير، ثم فرد جسمه عليه، وتدثر

بالملاءة فقط. ومد يده وهو مستلقٍ، وأطفأ المصباح الكهربي.

لم يكن يدخل الغرفة حينئذ أي بصيص من الضوء الخارجي، ولا حتى من تلك النافذة الصغيرة بجوار السقف.. لم يكن يدخلها إلا تيار خفيف من الهواء الرطب، وبعض الضجيج الآتي من بعيد.

"غداً سأنتحر".. قال لنفسه، ثم أغلق عينيه، ونام.

أثناء الليل، كانت هناك عاصفة مطيرة، لم تكن من النوع الذي يفرغ حمولته من البرق والرعد دفعة واحدة، بل من النوع الذي يستغرق وقتاً طويلاً، ويحتفظ بقواه لأقصى مدى. راحت تتلكأ في السماء نحو ساعتين.

أرعدت عن بعد، وغمغمت قليلاً، وهي تتنقل بين أرجاء المدينة. ثم تمددت وتمطت حتى شملت كل سماء المدينة، وغطتها بغطاء رصاصي اللون. تمهلت قليلاً، وشحنت نفسها من جديد، لكنها لم تنطلق.. تحت هذا الغطاء الرصاصي اللون، ساد سكون مطلق، وخلا

الجو من أي نسمة هواء، كما خلا من أية ذرة من الغبار.

كانت المدينة التي تبدو عادة ـ ترتجف بصمت ـ في ظل مثل هذا التوتر المحدق، تلوح كما لو أنها تحولت هي نفسها إلى عاصفة تتأهب للاندفاع نحو السماء، لتفجّر نفسها فيها. وأخيراً، وبينما كان الصباح يقترب، والشمس توشك على البزوغ، سمع صوت دوي.. دوي متفرد، لاح من قوته وكأن المدينة كلها قد انفجرت!

انتفض جوناثان في سريره، وفتح عينيه.. لم يكن قد سمع الدوي بوعي كامل.. فلم يميز فيه دوي الرعد. كان الأمر سيئاً جداً، ووقعه مفزع عليه، إذ اخترق الرعد في لحظة استيقاظه، كل أعضائه، وأصابه بهلعٍ عارم لم يعرف له سبباً، وكأنه هلع الموت!

الشيء الوحيد الذي استطاع أن يخترق وعيه هو صوت الدوي: دوي متكرر مصحوب باهتزازات قوية.

أحس بأن البيوت في الخارج تتساقط مثل رفوف الكتب. وأول فكرة طرأت بذهنه، أنه قد آن الأوان، وأن النهاية أوشكت.. ليست نهايته وحده، بل نهاية العالم كله.. دمار الكون، نتيجة زلزال أرضي، أو قنبلة نووية، أو كلاهما معاً.. في كل الأحوال النهاية المطلقة.

وفجأة عم سكون وصمت تام.. مثل صمت القبور، فلم تعد هناك أية اهتزازات يشعر بها، أو أصوات تداعي وسقوط، أو قعقعة.. لم يعد هناك شيء، أو صدى لشيء. وهذا الصمت الممتد، كان أكثر إثارة لفزعه من ضوضاء دمار العالم كله. إذ لم يعد يشعر ولا يدري بأي شيء حوله. وكل حواسه البصرية والسمعية.. بل كل ما يمكن أن يخبره من هو؟ أو أين هو؟.. كان غارقاً في الفراغ المطبق للعتمة والصمت.

فقط كان يشعر بخفقان قلبه، وارتعاش جسده. ثم أدرك أنه يرقد على سرير.. ولكن.. أي سرير؟!.. وفي أي مكان؟! هذا إذا كان السرير مازال في مكانه.. لم

يسقط في مكان ما من الحضيض. إذ بدا له وكأنه يتأرجح! لذلك تشبث بيديه في الفراش، كي لا يقع! أو يفقد هذا الشيء المتشبث به.

راح يبحث بعينيه عن متكأ في الظلام، وبأذنيه عن متكأ في الصمت! بعدما أصبح لا يسمع ولا يرى شيئاً. ثم شعر بتلبك في معدته، وتصاعد إلى فمه طعم سردين منفِّر. قال لنفسه: "فقط لاتتقيأ!.. فقط لا تفرغ ما من جوفك.. ليس الآن على أية حال!.. لا تلفظ بأحشائك وروحك إلى الخارج!".

بعد وقت طويل ومقيت، استطاع أن يميّز شيئاً في العتمة: شعاع خافت جداً من الضوء في السقف، ناحية اليمين. راح يحدق فيه ويتشبث به بكلتي عينيه.. ثم بدت له بقعة مربعة صغيرة من الضوء، شكّلتها فتحة كأنها الحد الفاصل بين الداخل والخارج، أو نافذة في غرفة ما.. ولكن! أية غرفة؟.. إنها ليست غرفته التي يعرفها!.. لا يمكن أن تكون هذه غرفته!.. إن النافذة في غرفته مكانها فوق مقدمة السرير، وليست مرتفعة

هكذا قرب السقف. إن هذه .... لا.. ليست هذه غرفتك في بيت عمك.. إنها غرفة الأولاد في بيت أهلك في "شارنتون".. لا ليست هي غرفة الأولاد.. إنها القبو.. نعم القبو. أنت الآن موجود في قبو بيت أهلك.. أنت الآن طفل صغير.. ويبدو أنك كنت تحلم بأنك أصبحت رجلاً.. حارساً ثقيل الظل لبنك في باريس.. ولكنك مازلت طفلاً تجلس في بيت أهلك، وفي الخارج تدور رحى الحرب، وأنت محبوس.. منسي. لماذا لا يأتون لإنقاذك؟.."لماذا لا ينقذونني؟.. لماذا يعم صمت القبور هذا .. أين الآخرون؟.. يا إلهي.. أين الناس؟.. لن أستطيع بلاشك متابعة الحياة بدونهم!".

كاد أن يصرخ.. وأن يقول بصوت عال بأنه لن يستطيع متابعة الحياة بدون الناس.. يصرخ في الصمت المطبق، والسكون الذي يلفه. خوف الطفل العجوز جوناثان نويل من أن يترك وحيداً، جعله خائفاً خوفاً مطلقاً.

في اللحظة التي أراد فيها الصراخ، أتاه الجواب.. سمع شيئاً: طرقة، طرقة خفيفة جداً.. ثم طرقة أخرى.. وثالثة، ورابعة، في مكان ما في الأعلى. ثم أصبح الطرق أكثر تناغماً، مثل خبط خفيف على طبل، أخذ يشتد أكثر فأكثر، حتى تحول من خبط خفيف إلى هدير هائل قوي.. تعرّف فيه على صوت تساقط المطر.

في تلك اللحظة، عادت الأشياء إلى ترتيبها السابق في وعيه، فأدرك أن البقعة المربعة المضيئة هي غطاء النافذة الصغيرة بالسقف، وتعرّف من خلال الضوء الشاحب النافذ من زجاج النافذة على الخطوط الرئيسية للغرفة التي استأجرها بالفندق، ورأى حوض الغسيل، والكرسي، والحقيبة.

وبعد أن تلاشى الخوف الذي كان مسيطراً عليه، أرخى من تشبث أصابع يديه بالفراش، وسحب فخذيه وضمهما إلى صدره، وطوقهما بذراعيه، وظل متكوراً هكذا نحو نصف ساعة تقريباً، لم ينقطع خلالها

صـوت المطـر في أذنيـه. ثـم نهـض مـن الفـراش، وارتـدى ثيابه.

لم يكـن بحاجـة إلى أن يشـعل المصبـاح الكـهربـي، فضـوء الفجـر مكّنـه مـن تـدبّر أمـره فأخـذ حقيبتـه ومعطفه ومظلته، وغادر الغرفة، ثم هبط درج الفندق في هدوء.

كـان موظف الاستقبال نائماً، فاتجه ناحيتـه ماشـياً على أطراف أصابع قدميه، حتى لا يشعر به ويستيقظ، ومـد يـده وضـغط ضـغطة سـريعة علـى زر فـتح البـاب الكهربي، فانفتح البـاب محـدثاً صـريراً خفيفـاً.. وخـرج من الفندق إلى الهواء الطلق.

في الشـارع، خـارج الفنـدق، تلقفتـه بـرودة الصـباح الباكـر، وضوؤه المائل إلى الزرقة الخفيفة.

كـان المطـر قـد توقـف، إلا أن قطـرات منـه كـانـت مـاتزال تتسـاقط مـن أسـطح البنايـات وأطـراف مظـلات المحـلات. وكـانـت بـرك صـغيرة مـن الميـاه قـد تشـكلت علـى الرصـيف. راح يمشـي في شـارع "دوسـيفر"، الـذي

كان خالياً من المارة في تلك الساعة المبكرة من الصباح.

كانت البيوت والبنايات الضخمة تنتصب في صمت وتواضع وبراءة تحرّك المشاعر بعد أن غسلها ماء المطر، وأزال عنها مظهرها المتباهي.

في الناحية المقابلة للرصيف الذي كان يمشي عليه، عند قسم الأغذية والبقالة في "سوبر ماركت بون مارشيه" كانت هناك قطة تهرول مسرعة بمحاذاة (الفاترينة)، ثم اختفت تحت إحدى طاولات بيع الخضروات الفارغة، المصفوفة خارج المتجر.

إلى اليمين في ساحة "بوسيكو"، كانت أغصان الأشجار تطقطق، وهي تنفض عن أوراقها قطرات المطر. وكان هناك بين الأغصان طائران صغيران يغردان وصدى تغريدهما يرتد عن واجهات المباني متضخماً، ليضاعف من السكون المخيّم على المدينة.

عبر جوناثان شارع "دوسيفر"، واتجه إلى شارع "دوباك" قاصداً الذهاب إلى غرفته.

كان نعل حذائه المبلول، يصدر صوتاً وهو يخطو به فوق الإسفلت، يشبه ذلك الصوت الذي يسمعه المرء حين يمشي في أرض موحلة.

تملكته رغبة شديدة في خلع حذائه والمشي حافياً لكنه سيطر على رغبته تلك، ولم يفعل.. ليس لاستهجانه الفعل، وإنما فقط لشعوره بالكسل!

وبدلاً من ذلك، راح يقفز في برك المياه الكثيرة المنتشرة هنا وهناك على الرصيف، وعلى إسفلت الشارع.. كان يقفز عامداً في وسط تلك البرك، وينتقل وهو يمشي بشكل متعرج، من بركة إلى أخرى. وفي إحدى المرات، غيّر اتجاهه، وانتقل إلى الرصيف المقابل، بعدما لمح بركة جميلة بشكل خاص، وكبيرة، قفز في منتصفها تماماً.. فتبعثر الماء حولها في كل مكان، لدرجة أنه بلَّل واجهات المحلات والسيارات الواقفة بالقرب منها، كما ابتل بنطلونه بالكامل، شعر بمتعة كبيرة، وتلذذ بهذه الحماقة الطفولية، وكأنه قد استعاد حريته المطلقة!

حين وصل إلى شارع "دولا بلاش" كان ما يزال على حال ابتهاجه وسعادته اللحظية. ووصل أخيراً إلى البناية التي بها غرفته التي يعيش بها. أسرع في خطأه وهو يمر بمحاذاة غرفة مدام "دوكار" المغلقة، ليصل إلى الفناء الخلفي للبناية حيث سلم الخدم الضيق.

بدأ في صعود السلم، وأثناء اقترابه من الطابق السادس، راح صدره ينقبض وهو يفكر في نقطة النهاية التي سيصل إليها حيث سيكون بانتظاره هناك ذلك الكائن البشع!.. الحمامة!.. ستكون منتصبة على ساقيها الحمراوين، بمخالبهما الرفيعة الحادة.. هناك في نهاية الممر، محاطة ببرازها، وزغبها المتطاير من حولها.. تنظر بعينيها عديمتي اللون.. المرعبتين.. وستحلق بجناحيها، بلاشك، وتلمسه.. ومن المستحيل تجنبها في ذلك الممر الضيق!

تمهّل في خطواته.. ثم توقف ووضع حقيبته إلى جانبه على السلّم، وظل واقفاً.. على الرغم من أنه لم يكن متبقياً أمامه سوى خمس درجات فقط! لم يكن يفكر

في التراجع... فقط كان يريد أن يستريح، ويلتقط أنفاسه، ويوفّر لقلبه بعض الوقت لكي يهدأ ، قبل أن يكمل هذا الجزء الأخير من السلم.

راح ينظر إلى الخلف.. متتبعاً بنظره الالتواءات لحلزونية لسور السلم، حتى نهايته بالدور الأرضي. فرأى الأضواء المشعّة من الجانب، في كل طابق من طوابق البناية.

في تلك اللحظات كان ضوء الصباح قد فقد زرقته، وأصبح أكثر إصفراراً كما أصبح الجو أكثر دفئاً.

تناهت إلى أذنيه أصوات الصباح الأولى المنبعثة من شقق البناية: رنين الكؤوس.. الصوت المكتوم لباب ثلاجة وهو ينغلق.. موسيقى خفيفة منبعثة من مذياع...

ثم فجأة، اقتحمت أنفه رائحة يألفها ويعرفها جيداً: إنها رائحة قهوة مدام "لاسال".. استنشق الرائحة أكثر من مرة.. وشعر كما لو كان يتناول هذه القهوة بالفعل.

تناول حقيبته من على الأرض، وتابع صعوده. لم يعد يشعر بالخوف حين لمس بقدمه أرض الممر الموصل إلى غرفته، لمح شيئين معاً، وفي نفس اللحظة: النافذة المغلقة في نهاية الممر.. وقطعة القماش الصغيرة المعلقة فوق حوض الغسيل لتجف.

لم يكن قد رأى نهاية الممر بعد إذ كانت تحجبه عن عينيه، حزمة الضوء الباهر المنبعثة من النافذة.

تابع خطوه دونما أي تردد أو شعور بالخوف.. تجاوز حزمة الضوء، ودخل منطقة الظل بعدها.

كان الممر خالياً.. اختفت منه الحمامة.. كما اختفت بقع البراز التي كانت منتشرة على أرضه، ولم يعد هناك أي زغب أو ريش صغير يرتجف على بلاطه الأحمر.